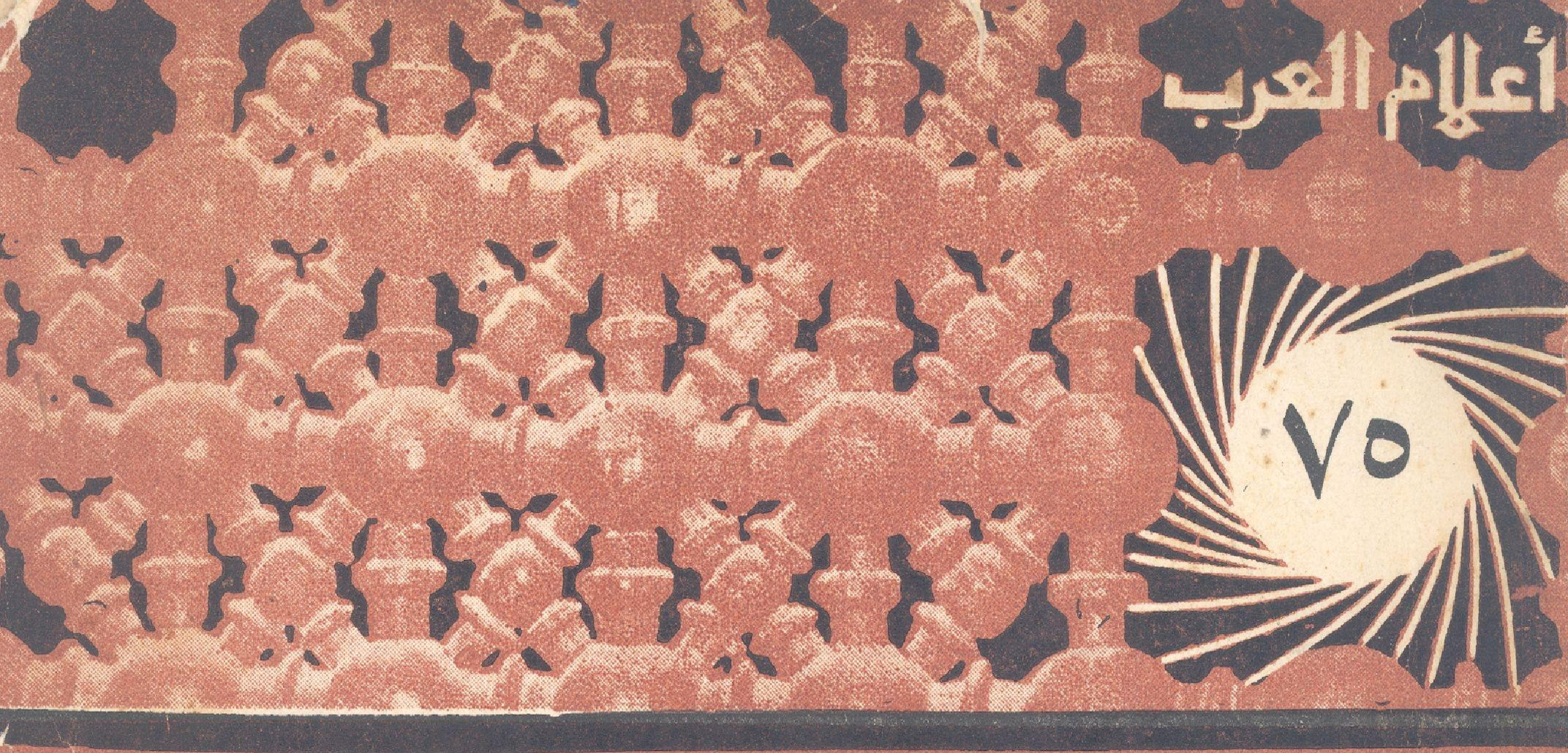


يونس بن حبيب

تأليف
دكتور حسين نصار

وزارة الثقافة
دار
الكاتب
العربي
للطباعة
والنشر

مارس ١٩٦٨

أعلام العرب
٧٥

يونس بن حبيب

تأليف ..
دكتور حسين نصار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لو كانت مدينة غير البصرة لاحتاجت الى تعريف ، ولو كان غير القرن الهجرى الثانى لاحتاج الى وصف . ولكن عندما يجتمع الأمران نستغنى عن كل حديث . فما أبرز صورة البصرة ، وأوضحها واجملها ، فى ذهن كل متصل بالثقافة العربية ، فى القرون الأولى .

وكان علم العربية ـ الذى توافرت عوامل عدة فى القرن الأول جعلت العرب وغير العرب يتنبهون اليه ، ويتحدثون فى بعض مسائله ، ويخوضـون فى بعض مشاكله ـ كان هذا العلم قد أخذ عوده يشتد ويزكو ، واغصانه تلتف وتورق ويؤتى ثمارا شهية .

فاحاط به ـ فى القرن الثانى ـ رجال أمثـال عبد الله بن أبى اسحاق ، وأبى عمرو بن العلاء ، وعيسى ابن عمر ، وأبى الخطاب الأخفش ، والخليل بن احمد ، ويونس بن حبيب ، وسيبويه ، فى البصرة ؛ وأمثال الرؤاسي والكسائى ومعاذ الهراء فى الكوفة .

وكل هؤلاء الرجال مشهورون فى ((علم العربية)) الذى صار بعد ، علوما متفرقة من لغة ، ونحو ، وصرف ، وبلاغة . ولكن تفاوت حظهم من الشهرة ، فتفاوت حظهم من عناية الناس بهم ، سواء من عاصرهم أو جاء بعدهم ، الى يوم الناس هذا . فكان منهم من تمتع ولا زال بالأضواء كسيبويه . وكان من تمتع بها ثم خبت مع الزمن . فعسر علينا أن نتبين له صورة واضحة دقيقة ، أو أظلمت علينا أجزاء من صورته .

والرجل الذى أكتب عنه يعطينا مثالا بارزا لما قلت . فقد كان من أعلام البصرة ابان ازدهار الثقافة بها ، بل كان أحد علمين شغلا الناس فى علم النحو ، ثم جار عليه الاهمال ، فلم يجد من يكتب عنه ، ويقدره حق قدره .

وانى آمل أن أستطيع — فى هذه الدراسة — أن أبرز له ((صورة حية)) ، ان فاتها كثير مما يتصل بحياته ، فعذرها أن ذلك لم يكن منها عن عجز أو اهمال أو نسيان أو غفلة ، بل كان اضطرارا لضياعه .

أما ما بقى من الرجل وعنه فقد تتبعته هذه الصورة ، ووضعته معا ، وأعادت النظر اليه ، حتى التقطت المتناسق والمترابط ووضعت كلا مع رصيفه . ثم أخذت المنفرد ، والمتنافر ، وحاولت أن تستنبط الروابط بينه . وأخيرا كان النفى لما لا يلتئم مع الصورة ، وكان النفى معللا .

وكانت ثمرة ذلك كله ((هذه الصورة)) التى أضعها بين يدى القارىء راجيا أن أكون قد أبرزت فيها معالم الرجل ، وحددتها ، وأكملت الساقط منها ، فيستطيع كل قارىء أن يتعرف عليه وأن يقدره .

الباب الأول

الرجل

الفصل الأول

حيـاته

اتفق أكثر من كتب عن الرجل الذى أسعى وراءه ، على كنيتـه واسـمه . فهو عندهم أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب . ولم يخرج على هذا الاتفاق غير من كناه ابن النديم (١) « أبا سعيد » وروى عنه أن كنية يونس أبو محمد . ولم يتابعه أحد فى هذه الكنية . وقد أخفى هذا الاتفاق وراءه اختلافا فيمن يسمى « حبيب » ، لأنه من الأسماء المشتركة التى تطلق على الرجال والنساء .

وصور ابن خلكان (٢) هذا الاختلاف فقال : « حبيب اسم أمه ـ ولهذا (٣) لا يصرفونه ـ فانه لا يعرف له أب . ويقال انه ولد ملاعنة (٤) . ويقال انه اسم أبيه ؛ فينصرف . والله أعلم .

---

(١) الفهرست ٤٢ .

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٧ .

(٣) يريد للعلمية والتأنيث .

(٤) الملاعنة بين الزوجين : أن يقذف الرجل امرأته أو يرميها برجل أنه زنى بها ، فالامام يلاعن بينهما . ويبدأ بالرجل ويقفه حتى يقول : « أشهد بالله أنها زنت بفلان ، وانى لصادق فيما ارميها به » . فاذا قال ذلك اربع مرات ، قال فى الخامسة : « وعلى لعنة الله ان كنت من الكاذبين فيما أرميها به » . ثم تقام المرأة فتقول أيضا أربع مرات : « أشهد بالله انه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا » . ثم تقول فى الخامسة : « وعلى غضب الله ان كان من الصادقين » . فاذا فرغت من ذلك بانت منه ، ولم تحل له أبدا . وان كانت حاملا فجاءت بولد ، فهو ولدها ولا يلحق بالزوج لأن السنة نفته عنه . سمى ذلك كله لعانا وملاعنة لقول الزوج : « على لعنة الله ان كنت من الكاذبين » وقول المرأة : « على غضب الله ان كان من الصادقين » .

وكذلك محمد بن حبيب النسابة ايضا » . والى الرأى الأول ذهب الفيروز ابادى (١) ، حين قال : « حبيب أمه ، ولم أقف على اسم أبيــه » .

ولكن أبا أحمد العسكرى (٢) روى خبرا ، ان صح أبطل هذه الأقوال ، قال : « انشدنا الهزانى قال : أنشــدنا الرياشى قال : حدثنا ابن أبى رجاء قال : حدثنا أبو ثوبان : قال يونس : « أرسلنى أبى الى رؤبة أسأله : كيف ينشد هذا البيت :

أبنى لبينى لستم بيـــد الا يد ليست لها عضد

أم يدا ؟ فقال : كيف شئت » . فالخبر يصرح أن « أباه » هو الذى أرسله الى رؤبة مستفهما .

وبالرغم من ذلك فانى أشك فى هذا الخبر ، أو فى صــــورته هذه . فلم اجد أحدا ممن أرخ للغويين والنحويين ترجم لهـــذا « الأب » ، ولم أجد أحدا روى عنه أو أورد أخبارا أخرى عن يونس عنه . وأظن أن تحريفا وقع فى نص الخبر ، وأن صحته « أرسلنى أبو عمرو الى رؤبة أسأله » ، فسقط « عمرو » فغير أحد النساخ « أبو » الى « أبى » .

وتتكرر الظاهرة نفسها فى أمر آخر . فقد أجمع المؤرخون على أن يونس مولى ، ثم اختـــلفوا فيمن ارتبط به بالولاء . وكان ابن خلكان (٣) أيضا الذى أحسن تصوير الاختلاف فى قوله : « قال أبو عبد الله المرزبانى فى كتابه « المقتبس فى أخبار النحويين » : هو مولى ضبة ، وقيل : هو مولى بنى ليث بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة ، وقيل : مولى بلال بن هرمى ، من بنى ضبيعة بن بجالة » .

---

(١) تحفة الأبيه ١١٠ .

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٣٦٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٦ .

واقتصر ياقوت (١) على ذكر القبيلتين ، فقال : « الضبى ، وقيل : الليثى ، بالولاء » . ورجح المبرد ولاءه الى ثانيتهما ، روى القفطى (٢) : « قال المبرد محمـــد بن يزيد : يونس بن حبيب أبو عبد الرحمن ، أراه مولى بنى ليث » . ومال أبو الحسن الخزاز الى ذلك استنباطا ، قال (٣) : « أراه مولى لبنى ليث .. لا أحقه ، ولكنه كان يكون مع هؤلاء ، فلا أدرى هو مولى أم لا » .

ولكننى أعتقد أن الحكم فى هذا الأمر تلميذه أبو عبيدة معمر ابن المثنى (٤) ، الذى أعلن ولاءه لبلال ، من بنى ضبيعة ، وهو الذى ذكره جرير فى قوله :

يا ضب ، عـلى أن تصيب مواسمى
كوزا عـــلى حنق ورهـــــط بلال

ونستبين من قصيدة جرير أن بلالا من بنى ضبة ، فولاء يونس له ولاء لبنى ضبة ، فلا خلاف بين نسبته بالولاء الى الرجل أو الى قبيلته .

ويتبادر الى الذهن من هذه الأقوال أن يونس فارسى الأصل . ولكن بروكلمن (٥) له رأى آخر ليس ببعيد ، قال : « زعم مصنف « مفاخر العجم » أنه أعجمى .. ولكنه يجوز أن يكون أيضا من النبط الآراميين » .

ولا خلاف بين المؤرخين أنه ولد فى جبل ، وهى بلدة صغيرة بالعراق على دجلة ، ذكر ابن خلكان (٦) أنها بين واسط وبغداد ،

---

(١) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤ .
(٢) أنباه الرواة ــ المجلد الثانى ٣٦٤ .
(٣) الفهرست ٤٢ .
(٤) شرح النقائض ١ : ٣٣٢ .
(٥) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠ وانظر الفهرست ٤٢ .
(٦) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٧ .

وذكر ياقوت (١) أنهـــا بين واسط والنعمانية . ولا تناقض بين القولين ، غير أن قول ياقوت أدق . فآثار البلدة تقوم الآن فى لواء الكوت ، بين مدينتى الكوت والحسينية ، مقابل أم البنى ، عنـــد خط طول ٤٢َ ــ ٥٤٥، شرقا وخط عرض ٣٣َ ــ ٥٣٢ شمالا .

وكان يونس لا يحب أن ينسب الى بلدته ، أو يذكر بها . روى الأصمعى (٢) أنه لقيه رجل من ولد أبي عمير ، فأراد أن يسخر منه ، فقال : « يا أبا عبد الرحمن ، ما تقول فى « جبل » : أينصرف ؟ » فسبه . والتفت العميرى فلم ير أحداً يشهده عليه . فتركه حتى اذا كان من الغد ، وجلس يونس للناس ، أتاه العميرى وأعـــاد السؤال : « يا أبا عبد الرحمن ، ما تقول فى « جبلُ » : أينصرف ؟ » فرد عليه يونس : « الجواب ما قلت لك أمس » . ولعل سبب هذه الكراهية أن جبل تذكره بمولده غير الكريم ، أو بأصله غير العربى ، وخاصة ان كان من الأنباط ، الذين لم يحترمهم العرب .

مولـــده

اختلف العلماء فى السنة التى ولد يونس فيها اختلافا حكاه ابن خلكان (٣) فى قوله : « مولده سنة تسعين .. وقيل : مولده ســـنة ثمانين » . واقتصر الســـيوطى (٤) على التاريخ الأول ، وياقوت (٥) على الثانى . ونقل ابن الجزرى (٦) أن وفاته كانت فى سنة ١٨٥ عن ٨٨ سنة ، ويعنى هذا أنه ولد فى سنة سبع وتسعين أو ما قاربها .

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣٠.

(٢) القفطى ٢ : ٣٦٤ . ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٦ .

(٤) بغية الوعاة ٣٦٥ .

(٥) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٧ .

(٦) غاية النهاية ٢ : ٤٠٦ .

ولكننا نعرف انه أخذ عن حماد بن سلمة ، وأن محمد بن سلام الجمحي ســـأله : « أيما أسن : أنت أو حماد ؟ » فقال : « هـــو أسن منى ، ومنه تعلمت العربية » (١) . ولم أجـــد من ذكر مولد حماد ، ولكنهم أعلنوا أنه مات فى سنة ١٦٥ أو ١٦٧ ، أو ١٦٩ بعد أن كبر وأهتر ، كما قال بعضهم ؛ وقارب الثمانين ، فى قول بعضهم الآخر . واذن فمولد حماد بين سنتى ٨٥ و ٨٩ أو قريبا منهما . ويقطع هذا باستحالة أن يكون مولد يونس فى سنة ٨٠ .

وذكر ابن خلكان (٢) انه « كان يقول : أذكر موت الحجاج .. وقيل : انه رأى الحجاج » . ولما كان الحجاج بن يوسف الثقفى ــ المعنى بهذا الكلام ــ قد مات فى سنة ٩٥ ، كان القول بأن يونس ولد فى سنة ٩٧ غير صحيح .

ولا يبقى عندنا غير سنة ٩٠ هـ ، وهى التى تصلح لأن تكون مولدا ليونس على كل الأقوال ، ويرجحها أيضا سؤال ابن ســـلام الذى يدل على أن الفرق بين عمرى حماد ويونس كان من الضآلة بحيث يشتبه على الناس ويحتاج الى السؤال عنه .

وفـــــاته

طال العمر بيونس حتى ثقلت حركته . قيل انه دخل المسجد يوما وهو يتهادى بين اثنين من الكبر . فقال له رجل كان يتهم مودته : « بلغت ما أرى ، يا أبا عبد الرحمن ! » فقال له : « هو الذى ترى فلا بلغته » (٣) . وكثيرا ما كان ينشد قول الشاعر :

---

(١) نزهة الألباء ٢٦ . السيرافى ٣٤ .

(٢) الوفيات ٢ : ٤١٦ .

(٣) أبو الطيب ٢١ ابن خلكان ٢ : ٤١٧ . القفطى ٢ : ٣٦٣ . الحيوان للجاحظ ٥ : ٥٩١ ابن الجزرى ٢ : ٤٠٦ . نزهة الالباء ٣٤ . عيون الأخبار ٢ : ٣٢٠ . المعمرون ٧٢ . أمالى المرتضى ١ : ٢٥٧ .

حنتني حانيـــات الدهـــــر حتى

كأني خاتل يدنو لصـــــــــــيد

قريب الخطـــــو يحسب من رآني

ــ، ولست مقيدا ــ أني بقيـــــد

اتفق المؤرخون على هذا ، ثم اختلفوا فى قدر عمره ، والسنة التى توفى فيها ، واقتصر اكثرهم على ايراد الأقوال المتنازعة دون ترجيح .

واقل ما قالوا من أعوام عاشها يونس ٨٨ سنة ، وأعتقد أن الذين أتوا بهذا الرقم اعتمدوا على قول لاسحاق بن ابراهيم الموصلى (١) ؛ وعلى هذا القول نفسه اعتمد السيوطى حين قال انه قارب تسعين ســـــنة (٢) . وحكى ابن خلكان فيما حكى عن المرزبانى أنه عاش ٩٨ عاما (٣) . وكان من الروايات التى أوردها ابن الجزرى وابن قاضى شهبة أنه قارب المئة (٤) ، ولعلهما اعتمدا فى ذلك على قول المرزبانى السابق . وصرح اللغوى المعروف ثعلب (٥) أنه جاوز المئة . وكان أطول عمر وهبوه للرجل مئة سنة واثنتين (٦) .

واغرب الروايات فى وفاته ما نقله بروكلمن (٧) عمن يقول ان ذلك كان فى سنة ١٥٢ هـ . فالمعروف أن سيبويه مات قبل جماعة كان

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . القفطى ٢ : ٣٦٦ . ابن قاضى شهبة ٢٥٢ . الفهرست ٤٢ .

(٢) البغية ٢ : ٣٦٥ .

(٣) الوفيات ٢ : ٤١٦ ، ٤١٧ .

(٤) الغاية ٢ : ٤٠٦ . الطبقات ٢٥٢ .

(٥) نزهة الألباء ٣٤ . القفطى ٢ : ٣٦٥ ، ٣٦٦ ابن الجزرى ٢ : ٤٠٦ . ابن قاضى شهبة ٢٥٢ . الفهرست ٤٢ .

(٦) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ ياقوت ٢٠ : ٦٧ ابن العماد ١ : ٣٠١ .

(٧) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠ .

قد أخذ عنهم كيونس وغيره (١) ، وأن سيبويه مات فى سنة ١٦١ أو بعدها .

ثم تجمع سائر الأقوال على أن وفاة يونس كانت فى العقد الثامن بعد المئة . وقد أجمل رجلان القول ولم يحدداه ، قال ابن العماد (٢) فى وفيات سنة ١٨٢ هـ : « وفيها وقيل قبلها أو بعدها توفى يونس » . وقال ابن الجزرى (٣) : « توفى بعد اثنتين وثمانين ومئة » .

أما بقية الرجال فقد حددوا سنوات تقع بين ١٨٢ و ١٨٥ . فانفرد ابن خلكان وابن الجزرى (٤) بايراد قول يصرح أن الوفاة وقعت سنة ١٨٥ ، وأولهما بايراد قول عبد الباقى بن قانع الذى أعلن أن ذلك كان سنة ١٨٤ . وتتكاثر الأقوال حول السنتين الباقيتين ، فاتفق الزبيدى والجاحظ وياقوت وأبو الطيب والقفطى وابن قاضى شهبة والسيوطى على سنة ١٨٢ (٥) ، والسيرافى وثعلب وابن الانبارى والقفطى على سنة ١٨٣ (٦) .

اخلاقه

اذا أردنا أن نتعرف على مذهب الرجل ودينه وجدنا أمامنا بعض الأقوال المتناثرة التى تلقى عليه بعض الأضواء .

---

(١) السيرافى ٣٧ .
(٢) شذرات الذهب ١ : ٣٠١ .
(٣) غاية النهاية ٢ : ٤٠٦ .
(٤) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٧ . غاية النهاية ٢ : ٤٠٦ .
(٥) مراتب النحويين ٢١ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . السيوطى ٢ : ٣٦٥ . القفطى ٣ : ٣٦٥ ابن قاضى شهبة ٢٥٢ . بروكلمن ٢ : ١٣٠ . الحيوان ٥ : ٥٩١ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٧ .
(٦) السيرافى ٣٧ ابن الانبارى ٣٤ ابن خلكان ٢ : ٤١٧ . القفطى ٢ : ٣٦٦ الفهرست ٤٢ .

قال ابراهيم الحربى (١) : كان أهل العربية كلهم أصحاب أهواء ، الا أربعة فانهم كانوا أصحاب سنة : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب البصرى ، والأصمعى .

ولما كان الثلاثة الآخرون يتمتعون عند الدارسين بأقصى درجات الاحترام ، ويشغلون أسمى مكانة ، دل هذا على ما كان يتمتع به يونس من احترام وتبجيل .

ويؤيدنا فى هذا قولان آخران ينسبان الى اثنين من أشهر العلماء والكتاب . قال أبو حاتم السجستانى (٢) : « فاذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها ، أو حكيت عن العرب شيئا ، فانما أحكيه عن الثقات عنهم مثل أبى زيد والأصمعى وأبى عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم » . ويمنحنا هذا القول مكانة يونس عند أتباع مدرسة البصرة فى اللغة خاصة .

أما القول الثانى فيمنحنا مكانة يونس عند الأدباء عامة ، وفى مروياته . قال الجاحظ (٣) : « ومن أراد الأخبار فليأخذها عن مثل قتادة (بن دعامة السدوسى) ، وأبى عمرو بن العلاء ، وابن جعدبة (يزيد بن عياض الليثى) ، ويونس بن حبيب ، وأبى عبيدة ، ومسلمة ابن محارب .. فان هؤلاء وأشباههم مأمونون ، وأصحاب توق وخوف من الزوائد ، وصون لما فى أيديهم ، واشفاق على عدالتهم » .

وكان يونس حريصا الا يخوض فى المسائل التى فرقت بين المسلمين . قيل انه جرى ذكر القدر فى أحد مجالسه ، فسئل عن رأيه فيه ، فقال : « لا فكر لى فيه » (٤) .

---

(١) ابن الانبارى ٤٧ ، ٨٤ . ابن حجر تهذيب التهذيب ٣ : ١٦٤ .
(٢) أبو الطيب ٩٠ المزهر ٢ : ٤١٠ .
(٣) البغال (رسائل الجاحظ) ٢ : ٢٦٦ — ٨ .
(٤) القفطى ٢ : ٣٦٥ .

ولكن حرصه هذا لم يمنعه من ابداء رأيه فى بعض المسائل ، التى كان الاختلاف فيها قليل الخطر . قال محمد بن سلام (١) : « سمعنى يونس يوما أراد التميمية فى خالد (بن الوليد ، فى قتله مالك بن نويرة فى حروب الردة) وأعذره . فقال : « يا أبا عبد الله ، أما سمعت بساقى أم تميم ؟ » ـ يعنى زوجة مالك ـ « أو صارت أم تميم الى خالد بنكاح أو سباء ؟ وما عابه عليه عمر بن الخطاب قال : قتلت امرءا مسلما ووثبت على امرأته بعقرباء يوم بنى حنيفة ! » .

بل بلغ من جرأته أن عاب بعض الأنبياء فى تصرفات لهم . ذكر عمر بن شبة عن خلاد بن يزيد عن يونس قال (٢) : « ثلاثة والله أشتهى أن أمكن من مناظرتهم يوم القيامة : آدم عليه السلام ، فأقول له : قد مكنك الله من الجنة وحرم عليك شجرة ، فقصدت لها ، حتى ألقيتنا فى هذا المكروه ! ويوسف عليه السلام أقول له : كنت بمصر وأبوك عليه السلام بكنعان ، بينك وبينه عشر مراحل ، يبكى عليك حتى ابيضت عيناه : لم لم ترسل اليه انى فى عافية وتريحه مما كان فيه من الحزن ؟ وطلحة والزبير أقول لهما : على بن أبى طالب عليه السلام بايعتماه بالمدينة وخلعتماه بالعراق ، لم ! اى شىء أحدث ؟ » .

وكان يونس رضى الخلق ، يثنى على أساتذته وزملائه وتلاميذه ، ويعترف لكل منهم بفضله ، ويبادر الى تصديق أقوالهم ، ويورد من الأقيسة ما يدعمها .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١٧٣ .

(٢) السيرافى ٢٩ . ابن قاضى شهبة ٢٥٢ . نزهة الألباء ٣٣ .

يتجلى لنا ذلك فى موقفه من أستاذه عيسى بن عمر . روى ابن السيد البطليوسى (١) : « قال سيبويه : وزعم عيسى بن عمر أن ناسا من العرب يقولون : اذن أفعل ذلك ، فى الجواب ، بالرفع . قال سيبويه : فأخبرت بذلك يونس فقال : « لا يبعد ذا » ولم يكن ليروى الا ما سمع ، جعلوها بمنزلة هل وبل . أراد أنهم لم يعملوها » .

وأشاد بذكاء زميله ، ومنافسه على رئاسة علم النحو فى البصرة ، أحسن الاشادة . قال أبان بن رزين البصرى (٢) : زعم يونس النحوى أن الخليل بن أحمد كان يستدل بالعربية على سائر اللغات ذكاء منه وفطنة .

وعندما برز واحد من تلاميذه فى العلم الذى منحه حياته لم يمتنع عن ايفائه حقه من التقريظ والتشجيع ، وأشاع ذلك بين بقية تلاميذه . قال الفراء (٣) : « دخلت البصرة فلقيت يونس وأصحابه ، فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة » .

واتجه تلميذ آخر له اتجاها يخالف اتجاه يونس بعض الشىء ، فلقى فيه الشىء الكثير من النجاح والشهرة . فكان الأستاذ من المغتبطين بما لقى التلميذ ، والمعترفين له باتجاهه واجادته فيه ، حتى لو كشف ذلك عن تقصير منه فيه . روى ابن عبد ربه عن مروان بن أبى حفصة قال (٤) : « لما مدحت المهدى بشعرى الذى أوله :

طرقتك زائرة فحى خيالها ... بيضاء تخلط بالحياء دلالها

---

(١) الحلل ٤١ ظ .

(٢) ابن المعتز : طبقاته ٩٧ .

(٣) السيوطى : المزهر ١ : ٢٠٢ .

(٤) العقد الفريد ٥ : ٣٠٦ ولكننا يجب ان نتوقف فى هذا الخبر ، لأنه روى أيضا بصورة تخالف الاستدلال به هنا .

أردت أن أعرضــــه على بصراء البصرة . فدخلت المسجد الجامع ، فتصفحت الحلق فلم أر حلقـــة أعظم من حلقة يونس النحوى . فجلست اليه فقلت له : انى مدحت المهدى بشعر ، وأردت الا أرفعه حتى أعرضه على بصرائكم ، وانى تصفحت الحلق فلم أر حلقة أحفل من حلقتك ، فان رأيت أن تسمعه منى فافعل . فقال : يابن أخى ، ان ها هنا خلفا (الأحمر) ، ولا يمكن أحدنا أن يسمع شعرا حتى يحضر ، فاذا حضر فأسمعه .. » .

بل كان يقر بالاجادة لنظرائه من العلماء بالعربية ، ولو كانوا من غير البصرة ، اذا ما أبدوا الرأى المعجب ولو خالف ما عنده . قال محمد بن سلام (١) : « قدم الكسائى البصرة مع الرشيد . فجلس الى يونس فى حلقته . فألقى عليه بعض من حضر المجلس بيتـــا للفرزدق :

غـــداة أحلت لابن أصرم طعنـــة
حصين عبيطات السدائف ، والخمر

فانشده هكذا . فقيـــل للكســـائى : « على أى شىء رفعت الخمر ؟ » فقال : « أضمرت فعلا كأنه قال : وحلت له الخمر » . فقال يونس : « ما أحسن والله ما وجهته ، غير أنى سمعت الفرزدق ينشد :

غـــداة أحلت لابن أصرم طعنـــة
حصين عبيطات السدائف ، والخمر

جعل الفاعل مفعولا ، كما قال الحطيئة !

فلما خشيت الهون والعير ممســـك
على رغمه ، ما أمسك الحبل حافره

---

(١) القفطى : ٢ : ٣٦٧ . شرح اعراب أبيات الجمل ١٠٢ ظ . وانظر البغية ٢ : ١٦٣ .

والقصيدة على الرفع ، جعل الفاعل مفعولا . فقال الكسائى : « هذا على هذا وجه » .

ولكن بعض الشبان فى حلقة يونس لم يعجب بمسلكه (١) ، وأراد أن يحرج الرجل ويتنقصه ، فأخذ يوجه اليه السؤال بعد السؤال . ولكن يونس لم يرض عن هذا الأمر ، وقال غاضبا : « تؤذون جليسنا ومؤدب أمير المؤمنين » .

ويذكرنا هذا بموقف مشابه كان ليونس نفسه فى شبابه ، روى أبو عبيدة عن يونس قال (٢) : « كنت عند أبى عمرو فجاءه شبيل ابن عزرة الضبعى . فقام اليه وألقى له لبد بغلته . فجلس عليه ثم أقبل عليه يحدثه . فقال شبيل : « يا أبا عمرو ، سألت رؤبتكم عن اشتقاق اسمه فما عرفه ! » — يعنى رؤبة . فلم أملك نفسى عند ذكره فرجعت اليه ثم قلت له : « لعلك تظن أن معد بن عدنان أفصح منه ومن أبيه ! أفتعرف أنت ما الروبة ، والروبة ، والروبة ، والروبة ، والروبة ؟ فأنا غلام رؤبة » . فلم يحر جوابا وقام مغضبا . فأقبل على أبو عمرو وقال : هذا رجل شريف يقصد مجالسنا ويقضى حقوقنا وقد أسأت فيما فعلت مما واجهته به ! » فقلت له : « لم أملك نفسى عند ذكر رؤبة » فقال أبو عمرو : « أو سلطت على تقويم الناس ؟ » .

فيونس قد أفاد من أبى عمرو أدبا تحلى به فى شيخوخته . ولكن هذا الأدب لم يمنعه من معارضة الكسائى ، وتوجيهه الى المسلك العلمى الحق فى بعض الأحيان . فقد سأل الشرادانى — من

---

(١) السيرافى ٢٧ . مجالس العلماء ٢٤٤ .

(٢) فسر يونس لتلاميذه الروبات فقال : الروبة : خميرة اللبن . والروبة قطعة من الليل . ويقال : لا يقوم بروبة أهله : اى بما اسندوا اليه من أمورهم والروبة : جمام ماء الفحل . والرؤبة — مهموزا : القطعة التى يشعب بها الاناء . وانظر القفطى ٢ : ٣٦٤ . المزهر ١ : ٣٧٠ المراتب ٢٢ . مجالس العلماء ٣٠٣ . سمط اللآلى ١٩٤ .

تلاميذ يونس ــ الكسائى (١) : « كيف تصغر حسيِنا ؟ » فقال : « حسينين » فقال مستنكرا : « أتصغر مصغرا ؟ هذا ما لا نهاية له . فوثب رجل كان مع الكسائى على الشراذانى وقال : « أتقول هذا لمؤدب أمير المؤمنين ؟ » فكان رد يونس الحاسم : « مغالبة العلم بالحجة لا بالسلطة » .

ولعل هذا الأدب الذى تحلى به يونس هو الذى جعله يعتمد على الكناية حين يريد أن يذكر بعض الصفات الكريهة فى بعض من يعرف . ولذلك قال عن خلف الأحمر حين اضطر الى الحديث عنه (٢) : « يضرب ما بين الكركى الى العندليب » .

ولم أعثر على ما يعيبه غير الخبر الذى يذكر أنه السبب فى مقتل بشار بن برد . روى أبو الفرج فى أحد أخباره (٣) أن بشارا هجا الخليفة المهدى ، والوزير يعقوب بن داود ، فأفحش فى الهجاء . ثم انشد هجاءه فى حلقة يونس ، فسعى به الى الوزير . فغضب ونقل الهجاء الى الخليفة فأمر بقتله فقتل .

ولكن الخبر ــ بصورته السابقة ــ غير صحيح . فالحق (٤) أن غزل الرجل الماجن ، واشتهاره بالزندقة ، ورثاءه أصدقاءه من الزنادقة الذين قتلهم المهدى ، وأخيرا هجاءه للخليفة ؛ كل ذلك أغضب الخليفة عليه . وعندما قدم المهدى الى البصرة فى سنة ١٦٨ سأل عنه ، فشهد أمامه شهود موثقون بأنه زنديق ، فأمر بضربه حتى الموت . وكان يونس أحد هؤلاء الشهود ، قال عند سؤاله (٥) : « ان بشارا زنديق وقامت عليه البينة عندى بذلك » .

---

(١) العسكرى : شرح ١٢٦ .
(٢) الجاحظ : الحيوان ٥ : ١٤٩ ، ٦ : ٤٠٩ .
(٣) الأغانى ٣ : ٢٤٣ .
(٤) شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ــ العصر العباسى الأول ٢٠٦ .
(٥) الأغانى ٣ : ٢٤٦ .

وقد فرح يونس بمقتل بشار . قال سالم بن على (١) : « كنا عند يونس فنعى بشارا الينا ناع ، فأنكر يونس ذلك وقال : لم يمت. فقال الرجـــل : انا رأيت قبره . فقال : أنت رأيته ؟ قال : نعم والا فعلى وعلى ؛ وحلف له حتى رضى . فقـــال يونس : لليدين وللفم » .

ولكن هذا الفرح لا يعيب الرجل ، لأنه كان أحد أبناء البصرة ، التى احتفلت بهذا الموت احتفالا خاصا . قال عمر بن شبة (٢) : أمر المهدى عبد الجبار صاحب الزنادقة فضرب بشارا ، فما بقى بالبصرة شريف الا بعث اليه بالفرش والكسوة والهدايا . وقال أبو الفرج (٣) : لما مات بشار ونعى الى أهل البصرة تباشر عامتهم وهنأ بعضهم بعضا وحمدوا الله وتصدقوا لما كانوا منوا به من لسانه .

واذن فيونس برىء من تهمة الوشاية ببشار ، ووصمة الشماتة بمقتله اذ لم ينفرد بذلك دون بقية كبار رجال البصرة .

وآخر ما وجدت من طباع يونس وأخـــلاقه أنه كان يشرب المطبوخ (٤) .

---

(١) الأغانى ٣ : ٢٤٧ .
(٢) الأغانى ٣ : ٢٤٧ .
(٣) الأغانى ٣ : ٢٤٨ .
(٤) القفطى ٢ : ٣٦٥ .

الفصل الثاني

طالب العلم

كان يونس بن حبيب يرفع قدر العلم حتى قال (١) : « علمك من روحك ومالك من بدنك » .

وكان يرى أن علم العربية خاصة أمر ضرورى لكل رجل ، لابد أن يحسنه علما وعملا ، أو نظرا وتطبيقا ، حتى يتحلى بالفصاحة والبيان . قال (٢) : « ليس لعيي مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ، ولو بلغ يافوخه أعنان السماء » .

لا عجب اذن أن يشتغل رجل هذه آراؤه بالعلم عامة ، والعربية خاصة ، بل ان يقبـــل عليه حتى ينسى كل شيء غيره . فكان أول ما ينسى طعامه وشرابه ، قال (٣) : « ما أكلت فى شتاء شـــيئا قط الا وقد برد ، ولا أكلت فى صيف شيئا الا وقد سخن » .

وكان مما نسى أو تشاغل عنه أسرته حتى اعتقد بعض النـــاس أنه لا أسرة له . قال اسحاق بن ابراهيم الموصلى (٤) : « عاش يونس ثمانيا وثمانين سنة ، لم يتزوج ولم يتسر ، ولم يكن له همة الا طلب العلم ومحادثة الرجال » . ولكن هذا القول غير صحيح ، لأننا نعرف واحدا من أبناء يونس كان يسمى حرميا ، روى القراءة عنه .

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ١٢١ .

(٢) عيون الأخبار ٢ : ١٧٥ . البيـــان والتبيين ١ : ٧٧ . ربيع الأبرار ٤ : ٩٩ .

(٣) الجاحظ : الحيوان ٣ : ٤٦٩ .

(٤) القفطى ٢ : ٣٦٦ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . البغيـــة ٢ : ٣٦٥ . الفهرست ٤٢ .

شيوخه

ولا يذكر المؤرخون ليونس أين طلب العلم أولا ، ولا متى ، ولا فى أى سن . فلا ندرى هل كان ذلك فى بلدته الأولى أو كان فى البصرة ، بل لا ندرى متى انتقل الى البصرة . ولكن الذى نقطع به أنه أخلص حياته للعلم ، وأنه طلبه فى كل مكان سمع أنه فيه ، ومن كل مجال .

ونستطيع أن نلمح فى دراسته لونين ، كانا شائعين فى عصره : دراسة منتظمة ، وأخرى غير منتظمة . أما المنتظمة فكانت من علمى القـــراءة والعربية . فتلقى العلم الأول عن أبان بن يزيد العطار ، والحسن بن عمران الشحام ، وأبى عمرو بن العلاء (١) . وتلقى الثانى عن حماد بن سلمة وأبى عمرو أيضا (٢) .

وليس فيما بقى من أقوال يونس وأخباره صدى لهؤلاء الشيوخ ، سوى أبى عمرو . فالأقوال التى نقلها عن حماد نادرة بل تكاد تكون معدومة ، بالرغم أنه كان يفضله (٣) . ومثال ما رواه عنه ما جاء فى نزهة الألباء (٤) : « حكى أبو الحسن الأخفش ، عن يونس بن حبيب : أن حمادا حدثه أن ناسا من العرب يقولون فى النسب الى شـــية : شيوى ، والوجه فيه غير ذلك ، وهؤلاء كأنهم قلبوا موضع الفـــاء فوضعوه فى موضع اللام » .

أما أبو عمرو بن العلاء فكان يونس يرفعه مكانا عليا ، ويثق فيه

---

(١) الفهرست ٢٨ . النزهة ٢٦ . الغاية ٢ : ٤٠٦ . الوفيات ٢ : ٤١٦ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤ . أنباه الرواة ٢ : ٣٦٣ . ابن قاضى شهبة ٢٥٢ .

(٢) ابن سلام ١٤ . المراتب ٢٢ . السيرافى ٢٧ ، ٣٤ . مجالس العلماء ٢٤٣ . الأزهرى ٣٩ . ابن النديم ٤٢ . ابن الجورى ٢ : ٤٠٦ . ابن العماد ١ : ٣٠١ . المزهر ٢ : ٣٩٩ . البغية ٢ : ٣٦٥ . الشريشى ٢ : ٤٠٢ .

(٣) النزهة ٢٧ . قال ابن الأنبارى : « وحكى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب عن محمد بن سلام فى ترتيب النحويين من البصريين فقال : وحمـــاد ــ يعنى حماد بن سلمة ــ كان يونس بن حبيب يفضله » . وقد أدى ذكره حماد دون تحلية الى خطأ كثيرين اذ ظنوه حماد بن الزبرقان . انظر السيرافى ٣٤ .

(٤) ٢٧ .

كل الثقة ، ويقول (١) : « لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شيء واحد كان ينبغى لقول أبى عمرو بن العلاء فى العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحدٌ الا وأنت آخذ من قوله وتارك » . فلا عجب أن تكون أكثر رواية يونس عنه ، فلا تحتاج الى مثال للتدليل .

وكان فى عصر حماد وأبى عمرو أو فى عصر سابق عليهما قليلا : عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى . فعاصره يونس ورآه . ولكن ابن النديم (٢) حكى عن يونس أنه قال : « لم أسمع من عبد الله ابن أبى اسحاق الحضرمى ، ولكنى سألته هل يعلم أحدا يقول : الصويق ، مكان : السويق ، فقال : « هى لغة عمرو بن تميم » .

واخال أن ابن النديم مخطىء فى انكاره سماع يونس من عبد الله ، وأنه لم يصب فى فهم الخبر . فحقيقته التى أوردها ابن سلام (٣) قلت ليونس : « هل سمعت من ابن أبى اسحاق شيئا ؟ » قال : « قلت له : هل يقول أحد : الصويق .. » ولم يرد بذلك حصر سماعه فى هذا الابدال ، بل اراد اثبات السماع .

والدليل على ذلك أن يونس كان يبجل عبد الله ويرى أنه أعظم علماء عهده فى النحو ، وأنفذهم ذكاء . قال محمد بن سلام (٤) : « سمعت أبى يسأل يونس عن ابن أبى اسحاق وعلمه ، فقال : « هو والنحو سواء » . أى هو الغاية . قال : « فأين علمه من علم الناس اليوم ؟ » قال : « لو كان فى الناس اليوم من لا يعلم الا علمه يومئذ لضحك به ، ولو كان فيهم أحد له ذهنه ونفاذه ، ونظر نظرهم ، كان أعلم الناس » . فغير معقول أن يرى فيه هذا الرأى وأن يعاصره أكثر من ربع قرن ثم لا يسمع منه .

---

(١) ابن سلام ١٥ . الازهرى ٤٠ النزهة ١٥ .

(٢) الفهرست ٤٢ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ١٥ .

(٤) نفس المرجع ١٤ . السيرافى ٢٠ . النزهة ١١ . الزبيدى ٢٦ .

والحق أن يونس سمع من ابن أبى اسحاق وروى عنه . قال أبو عبيدة عن يونس قال (١) : « مضيت الى عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى فقلت له : « كيف تقرأ (فاذا برق البصر ؟) » فقال : فاذا برق البصر ، وفتح الراء . فقمت من عنده الى أبى عمرو فقلت : « من أين بك ؟ » قلت : « من عند عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى ، سألته : كيف تقرأ (فاذا برق البصر) فقال : « فاذا برق البصر ، بفتح الراء » . فقال أبو عمرو : « أين يراد به ، يقال : برقت السماء ، وبرق النبت ، وبرقت الأرض ، فأما البصر فبرق ؛ كذا سمعنا » .

وقال أبو عبيدة أيضا (٢) : « زعم يونس عن ابن ابى اسحاق قال : أصل الكلام بناؤه على فعل ، ثم يبنى آخره على عدد من له الفعل من المؤنث والمذكر ، من الواحد والاثنين والجميع ، كقولك : فعلت وفعلنا وفعلن وفعــــلا وفعلوا . ويزاد فى أوله ما ليس من بنائه ، فيزيدون الألف كقولك : أعطيت ، انما أصلها عطوت ، ثم يقولون : معطى ، فيزيدون الميم بدلا من الألف . . » فلا شك عندى فى أخذ يونس عن ابن أبى اسحاق سماعا فى بعض الأحيان ، وروايةً عن أبى عمرو فى بعضها الآخر ، فيما أظن (٣) .

ولم يعلن أحد من الذين أرخوا ليونس ممن رجعت اليهم أنه أخذ عن محمد بن مسلم الزهرى . ولكننى عثرت على رواية له عنه (٤) ، تعرض فيها لتفسير آية « وما علمناه الشعر » . وغير بعيد أن يأخذ يونس عن الزهرى ، فقد مات هذا فى سنة ١٢٣ أو بعدها ، وعرف بالحديث والأخبار . وكان ليونس شغف بالأخبار العربية ، ومشاركة

---

(١) مجالس العلماء ٢٤٧ .

(٢) مجاز القرآن ١ : ٣٧٦ . وانظر القفطى ٢ : ٣٦٥ .

(٣) انظر روايتهما ما نشب من خلاف بين ابن أبى اسحاق والفرزدق فى الموشح للمرزبانى ١٠١ ، وطبقات ابن سلام ١٩ .

(٤) السيرافى ٥٦ .

فى الحديث ، حتى ذكره ابن أبى حاتم فقال (١) : هو صاحب غريب .

وأضاف ثعلب شيخا آخر ليونس بن خبيب . قال فى أماليه (٢) : « كان يونس يقول : « حدثنى الثقة عن العرب » . فقيل له : « من الثقة ؟ » قال : « أبو زيد » . قيل له : « فلم لا تسميه ؟ » قال : « هو حى بعد فأنا لا أسميه » . لكن هذا القول غير صحيح أيضا . فالمعروف أن الذى كان يروى عن أبى زيد الأنصارى ، ويلقبه الثقة ، ويكنى بذلك عنه فى روايته هو سيبويه . أما يونس فلم يفعل ذلك ، بل كان شيخا لأبى زيد .

وزاد بروكلمن (٣) شيخا أخيرا هو أبو الخطاب عبد الحميد ابن عبد المجيد الأخفش الأكبر . ولكننى لم أعثر على المصدر الذى استقى منه هذا القول ، فأنا متوقف فى صحته .

الأعراب

واللون الثانى من الدراسة ، وهو الذى وصفته بالدراسة غير المنتظمة ، أعنى به الدراسة التى حصلها عن غير شيخ أو عالم معروف . وأهم ما يندرج تحت هذا اللون من الدراسة فى ذلك الزمن الرحلة الى البادية ، والعيش مع الأعراب الفصحاء فى مواطنهم ، والحوار معهم ، حتى قيل (٤) ان الكسائى لما ارتحل الى البصرة وجلس فى حلقة الخليل بن احمد ليأخذ عنه ، استنكر عليه احدهم هذا الفعل وقال له : « تركت أسدا وتميما وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة ! » فسأل الخليل : « من أين علمك هذا ؟ » فقال : « من بوادى الحجاز ونجد وتهامة » .

وتدور عبارة واحدة عند كل من كتب عن يونس تدل على هذه

---

(١) طبقات ابن قاضى شهبة ٢٥٢ .

(٢) المزهر ١ : ١٤٣ ، ١٥٢ الإقتراح ٢٨ .

(٣) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠ .

(٤) النزهة ٤٣ .

الدراسة ، تقول (١) : « وقد سمع من العرب كما سمع من قبله » .
ولم أجد نصا يصرح بأن يونس « سمع من العرب » فى « بواديهم »
بالرحلة اليهم ، وان كنت أرجح أنه قد فعل ، بالرغم من وجود نص
يدل على ان « العرب » أنفسهم كانوا يفدون على يونس فى البصرة .
ولا يقل هذا النص دورانا عند الكاتبين عن يونس عن النص السابق؛
ويقـــول (٢) : « وكانت حلقته بالبصرة ينتابها أهل العلم ، وطلاب
الأدب ، وفصحاء الأعراب والبادية » .

ولا يقف الأمر عند هذا النص ، بل تتعدد الأخبار عن هـــذه
الحلقة ، ومن طرقها من الأعراب للسؤال خاصة . قال أبو زيد (٣) :
« وقف علينا أعرابى فى حلقة يونس النحوى فقال : « الحمـــد لله
كما هو أهله ، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه ، خرجنا من المدينـــة
ـ مدينة رســـول الله صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثين رجلا ممن
أخرجته الحاجة ، وحمل عـــلى المكروه ، لا يمرضون مريضهم ،
ولا يدفنون ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل الى منزل وان كرهوه ،
والله يا قوم لقد جعت حتى أكلت النوى المحرق ، ولقد مشيت حتى
انتعلت الدم ، وحتى خرج من قدمى بخص ولحم كثير ، أفلا رجل
يرحم ابن سبيل ، وفل طريق ، ونضو سفر ، فانه لا قليل من الأجر ،
ولا غنى عن ثواب الله عز وجل ، ولا عمل بعد الموت . وهو الذى يقول
جـــل ثناؤه (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له)
ملى وفى ماجد واجد جواد ، لا يستقرض من عوز ، ولكنه يبـــلو
الأخيار » . قال : فبلغنى أنه لم يبرح حتى أخذ ستين دينارا » .

ويذكرنا هذا الخبر بالمقامات ، التى كانت تدور حول فن السؤال
والكدية ، ويعتمد بطلها على فصاحته فى اغراء الناس على التصدق

---

(١) السيرافى ٢٧ ، النزهة ٣١ ابن خلكان ٢ : ٤١٦ ، القفطى ٢ : ٣٦٥ ،
ياقوت ٢٠ : ٦٤ ، البغية ٢ : ٣٦٥ . ابن قاضى شهبة ٢٥٢ .
(٢) نفس المواضع .
(٣) الكامل ١ : ٣٠٥ .

عليه . ويجعلنا هذا نعيد النظر في كون البذور الأولى لفن المقامات وجدت عند أبي بكر بن دريد كما ظن الدكتور زكي مبارك (١) . ونبعد في الزمن ونرى بذورا أقدم غرست في حلقة يونس النحوي ، وعلى أيدي جماعة من رواد حلقته الدائمين مثل أبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة ، أعجبوا بما رأوا من أعراب يسألون الناس في الحلقة ويفوهون بالمعجب من القول ، فاتخذوا منهم أساسا بنوا عليه بناء فنيا جميلا (٢) .

وعندنا خبر يدل على أن هذه الحلقة كانت تضم أعرابا من قبائل شتى . فقد رووا (٣) : « قال رجل من الأزد في مجلس يونس النحوي : وددت والله أن بني تميم جميعا في جوفي على أن يضرب وسطي بالسيف . قال له شيخ في ناحية المجلس حرمازي من بني تميم : يا هذا ، يكفيك من ذاك .. » .

ولدينا عدة أخبار أخرى تحكي لقاء تم بين يونس بن حبيب وبعض الأعراب . ولكنها لا تبين موضع هذا اللقاء غير أننا نستنبط منها أنه لم يكن في حلقته . ونستطيع أن نستنبط من بعضها أنه كان في البصرة ، مثل ذلك الأعرابي الذي روى قصته أبو عبيدة ، قيل (٤) : « جاء عن عمر في الحديث أنه قال : ثلاثة أسفار كذبن عليكم : كذب عليكم الحج ، كذب عليكم الجهاد ، كذب عليكم العمرة . قال أبو عبيدة : هكذا سمعتها من العرب يرفعون بها في معنى الاغراء .. ما خلا أعرابيا من غني - وكان فصيحا - فانه نصب : وذلك أنه دخل منزلي فرأى شويهة مضرورة فقال : ما بال هذه على ما أرى ؟ فقلت : انا لنعلفها . فقال : كذب عليك البزر والنوى .

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع ١ : ١٩٧ - ٢٠١ .
(٢) انظر ايضا القفطي ٢ : ٣٦٦ . والمزهر ٢ : ٥٢٢ .
(٣) العقد الفريد ٤ : ٥١ .
(٤) نوادر أبي مسحل الأعرابي ١١١ - ٤ .

فأتيت به يونس بن حبيب ، فكتبها عنه ، وكتب بعد ذلك منه علما كثيرا . وقال : هذا القياس » .

وتصور لنا الأخبار المروية عن يونس والأعراب العلاقة بينهم ، وكيف كان يسلك الرجل شتى الطرق ليحصل على ما يريد منهم . فكان أحيانا يقتصر على الجلوس معهم والاستماع اليهم دون أن يتدخل فى شيء . قال ابن سلام (١) : « سمع يونس أعرابيا وقد قال له أعرابى آخر : كبرت والله ! قال : أجل ، لقد طالت حياتى ، وتحنت قناتى ، وابيضت سراتى » .

وكان فى بعض الأحيان يحاور الأعراب ويغريهم على أن يمنحوه أخبارهم . قال ابن سلام (٢) : « سمعت أعرابيا يخبر يونس قال : فارق أعرابى امرأته فقالت : ان كنت اذا أكلت لتحتف ، واذا شربت لتشتف ، واذا نمت لتلتف . قال : والله ان كنت لبولة منعة ، طلعة قبعة » .

وكان فى أحيان أخرى يلجأ الى السؤال المباشر . قال (٣) : « سألت أعرابيا فقلت : أمسكين أنت ام فقير ؟ فقال : لا بل مسكين » .

وقد وصل الينا أسماء بعض الأعراب الذين اتصل بهم يونس واخذ عنهم . وأهمهم رؤبة بن العجاج ، الذى رأينا سابقا غضبته له حين هاجمه شبيل بن عزرة الضبعى . وقد لاحظ القدماء العلاقة الوثيقة بين الرجلين ، فأعلن أبو الطيب عن يونس (٤) : « كان شديد الاختصاص برؤبة بن العجاج » .

---

(١) أبو أحمد العسكرى ٧٤ . وانظر ذيل الأمالى ١١٩ ، وأضداد أبى الطيب ٦٤٩ ، وجمهرة اللغة لابن دريد ٣ : ١٦٣ ، ومجالس ثعلب ٨ .

(٢) مجالس ثعلب ٤٥١ .

(٣) شرح ابن الانبارى للمفضليات ٢٣٥ . وانظر المنصف ٣ : ١٨ .

(٤) مراتب النحويين ٢٢ .

وتنوعت صور أخذ يونس عن رؤبة . فكان أحيانا يكتفى بمجرد الاستماع اليه وتسجيل حديثه ، كما فعل (١) حين روى أن رؤبة يقول : « ما جاءت حاجتك » بالرفع .

وكان فى أحيان أخرى يرصد ما يرويه من شعر غيره ، والطريقة التى ينشده بها (٢) ، كما فعل حين أعلن أن رؤبة كان ينشد البيت التالى لأحد بنى مذحج (٣) بالرفع :

عجب لتلك قضـية ، واقامتى فيكم على تلك القضية أعجب

وكان فى أحيان ثالثة يوجه السؤال المباشر الى رؤبة . روى أبو عبيدة (٤) : « سأل يونس رؤبة عن قول الله تعالى (ما بعوضة) فرفعها ، وبنو تميم يعملون آخـر الفعلين والأداتين فى الاسم . وأنشد رؤبة بيت النابغة مرفوعا :

قالت : ألا ليتما هذا الحمـام لنا
الى حمامتنا ونصفه فقـد »

لم يكن يستهدف فى كل أسئلته النحو كما سبق ، بل كان أحيانا يريد اللغة ، ويقصد التعرف على معانى بعض الألفاظ . قال أبو عبيـدة (٥) : «سمعت يونس بن حبيب يسأل رؤبة عن السانح والبارح فقال : السانح ما ولاك ميامنه ، والبارح ما ولاك مشائمه» .
وكان يونس أحيانا يعرض على رؤبة ما عنده فيعلق عليه . روى أبو عبيدة (٦) : « وأنشده يونس بيت جرير :

---

(١) الكتاب لسيبويه ١ : ٢٥ .
(٢) الكتاب ١ : ١٦١ .
(٣) ينسب البيت الى هنى بن أحمر الكنانى (انظر المرجع نفسه) .
(٤) مجاز القرآن ١ : ٣٥ .
(٥) شرح ديوان زهير ٥٩ .
(٦) الموشح ١١٩ .

انى — اذا الشاعر المغرور جربنى —

جار لقبر على مران مرموس

فقال رؤبة : كذب والله ، ما تميم بمران ، انما هو بذات عرق ، وقبر معد بمران » .

وفى بعض الأحيان لم يكن يونس هو السائل أو المتحدث ، بل كان رجلا غيره ، فسجل هو ما وقع ، اذ وقع فى حلقته . قال ابن سلام (١) : « سمعت يونس يقول : كان رؤبة عندى ، فقال له رجل : ما معنى قول العجاج :

وحبس الناس الأمور الحبسا

فقال له رؤبة : قلبه ويلك » .

وبلغ من الحاح يونس على رؤبة أن ضاق به ذرعا ، فقال له ذات مرة (٢) : « حتام تسألنى عن هذه الأباطيل وأزخرفها لك ؟ أما ترى الشيب قد بلغ فى لحيتك » .

وقد ظهر أثر ذلك جليا فى مرويات يونس ، فانه نسب اليه فيضا زاخرا من المعلومات اللغوية والنحوية والأدبية . فلا عجب أن ادعى أنه « غلام رؤبة » .

وبالرغم من ذلك لم يتقبل يونس كل شىء تفوه به رؤبة دون جدال ، بل كان فى بعض الأحيان يؤاخذه ويؤاخذ أباه لاشتقاقات يخرجان فيها على القياس عنده ، حتى ضاق به رؤبة وقال له (٣) : علينا أن نقول وعليكم أن تعربوا .

---

(١) الوشح ٢١٨ .

(٢) السيرافى ٢٨ . ابن سلام ٥٨١ . البغية ٢ : ٣٦٥ . المزهر ٢ : ٣٦٣ . أبو احمد العسكرى ١٥٠ . العقد الفريد ٦ : ٢٦٧ . النزهة ٣٢ . القفطى ٢ : ٣٦٦ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ .

(٣) سعيد الأفغانى : فى أصول النحو ٥٦ . (الحواشى) . وانظر مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٤ : ٣٢٧ .

وأخذ يونس أيضا من أبى مهدية من ثقات الأعراب ، وروى عنه . قال (١) : « ذهبنا الى أبى مهدية فى عقب مطر نسأله عن حاله ـ وكان قد بنى بيتا فى ظاهر خندق البصرة وسماه جناحا ـ فقلنا له : كيف انت يا أبا مهدية ؟ فقال :

عهدى بجناح اذا ما ارتزا — وأذرت الريح ترابا نزا
أن سوف تمضيه وما ارمازا — كأنما لز بصخر لزا

احسن بيت أهرا وبزا

يقال : بيت حسن الأهرة والظهرة : اذا كان حسن المتاع . قال : وما كان فى البيت الا حصير مخرق » .

وحكى أبو الطيب خبرا يدل على أن يونس كان على صلة بأبى الدقيش ، الذى وصفه أبو الطيب بأنه « كان أفصح الناس » ، قال عن الأخفش (٢) : « قال يونس : سألت أبا الدقيش : ما الدقيش ؟ فقال : لا أدرى ، انما هى أسماء نسمعها فنتسمى بها » .

ولكن هذا الخبر نفسه مروى عن الخليل ، بل كان من رواته أبو الطيب (٣) عن الأخفش أيضا . غير اننا نلاحظ فى رواية الخليل قوله : « دخلنا على أبى الدقيش نعوده » فتحدث بضمير الجماعة . فربما كان العائدون للرجل كثيرين ، وكان فيهم الخليل ويونس .

وروى السيوطى خبرا يدل على أن يونس اخذ عمن يكنى بأبى المحلم ، قال (٤) : « عن أبى المحلم قال : أنشدت يونس أبياتا من رجز فكتبها على ذراعه ثم قال لى : انك لجياء بالخير » . فان كان قصد أبا المحلم الشيبانى ، الذى ألف كتب الأنواء ، والخيل ،

---

(١) ابن دريد : جمهرة اللغة ٢ : ٣٢٦ .
(٢) مراتب النحويين ٤٠ ـ ٤١ . المزهر ٢ : ٣١٨ .
(٣) مراتب النحويين ٤٠ .
(٤) المزهر ٢ : ٣٠٤ .

وخلق الانسان ، كان الخبر غير صحيح ، لأن ابن النديم (١) يصرح أنه مات فى سنة ٢٤٨ ، أى بعد وفاة تلاميذ يونس ، فمحال أن يروى عنـــه .

ويبدو أن يونس أخذ عن أبى طفيلة الحرمازى ثم استضعفه بعد اقامته مدة فى البصرة . قال أبو عبيدة (٢) : « قال أبو طفيلة : طه : يا رجل . فأنكره يونس وقال : أظنه سمعتها عندنا .. أين سمعت هذا ؟ فقال : بالبادية . فقال له يونس : ألست اخبرتنا انك قدمت البصرة فى حطمة فكنت مؤذن عمران القصير عشر سنين ، أو قال : نحوها » .

وذكر الجاحظ أن يونس اخذ عن رجل قد نعجب أن يأخـــذ عنه ، لأنه غير عربى ، قال (٣) : « كان يونس بن حبيب يسمع منه (من أبى على الأسوارى) كلام العرب ويحتج به » . ولكننا حين نطلع على افاضة الجاحظ فى الثناء على الرجل ووصف فصاحته ، يزول كثير من عجبنا . وبالرغم من ذلك أظن أن الجاحظ أراد أن يونس احتج بالأسوارى فيما نقله عن العرب توثيقا له ، ولم يرد أنه احتج بلغته .

وكان يونس لا يقصر جهوده على احد ، بل كان يبحث عن المعرفة فى كل مظانها . فكان ممن بحث عنها عندهم الشعراء . فسعى اليهم واستمع الى أشعارهم . وقد مر بنا فى حواره مع الكسائى تصريح منه انه استمع الى الفرزدق وهو ينشد شعره (٤) . كذلك اتصل بذى الرمة وروى أشياء عنه . ذكر الأصمعى عن يونس (٥) أنه

---

(١) الفهرست ٤٦ .
(٢) مجاز القرآن ٢ : ١٥ (الحواشى) .
(٣) البيان والتبين ١ : ٣٦٩ .
(٤) وانظر كتاب سيبويه ١ : ٢٥٣ .
(٥) ابن دريد : جمهرة اللغة ٢ : ٣١ .

سأل ذا الرمة عن كلام ليس على وجهه ، فقال له : أتعرف اليتن ؟ وهو الولد الذى تخرج رجلاه قبل رأسه عند ولادته . قال : نعم . قال : فكلامك هذا يتن .

نتبين من هذه الأخبار حرص يونس بن حبيب عـــلى علوم العربية ، واقباله عليها ، لا يشغله عنها شاغل ، وبحثه عنها فى كل مجال ، وعند كل أهل للبحث عنده . واجتمع هذا الجهد الدائب الى ذاكرة واعية ، جعلت أبا الخطاب زياد بن يحيى يقول (١) : « مثل يونس كمثل كوز ضيق الرأس لا يدخله شيء الا بعسر ، فاذا دخله لم يخرج منه » ــ يعنى لا ينسى ، وكان الرجل الذى يتحلى بهذه الصفات ذا شخصية قوية ، وعقل حر ، ورأى مجتهد . فكانت الثمرة عالما يبرز بين العلماء ، ويحوز الشهرة بين المشهورين ، فلا يخمله علم ، ولا يطفئه نجم . فقرنت البصرة بينه وبين أشـــهر أبنائها من العلماء حينئذ : الخليل بن أحمد الفرهودى (٢) .

---

(١) القفطى ٢ : ٣٦٤ .

(٢) آثرت هذه النسبة مجاملة ليونس الذى كان يحتمها ، وان كانت الفراهيدى أشهر .

الفصل الثالث

باذل العلم

حلقته

ليس غريبا اذن أن يتنبه طلبة العلم الى رجل بالصفات التى تبينت لنا سابقا ، بل الغريب ألا يفعلوا . وليس غريبا أن يلتفوا حوله ، فيؤلفوا واحدة من حلقات البصرة العلمية . وخاصة اذا وضعنا نصب أعيننا قول أبى زيد (١) : « ما رأيت أبذل لعلم من يونس » .

ولست أستطيع أن أحدد مبدأ هذه الحلقة ، ولكنى عثرت على خبر يدل على أنها كانت قائمة قبل وفاة الخليل . قال النضر ابن شميل (٢) : « جاء رجل من حلقة يونس فسأل الخليل عن شيء . . » .

ولما انتقل الخليل الى جوار ربه انفرط عقد حلقته ، وانخرط كثير من أفرادها فى حلقة يونس أو ثبتوا فيها بعد أن كانوا يترددون بينها وبين حلقة الخليل . بل نفهم من بعض الأقوال أنه شغل المكان الشاغر فى حلقة الخليل (٣) . فصارت حلقته فى وصف مروان ابن أبى حفصة لها : « فلم أر حلقة أعظم من حلقة يونس » .

---

(١) سمط اللآلى ١٩٥ . القفطى ٢ : ٣٦٤ .
(٢) الشريشى ٢ : ٢٤٧ . الشذرات ١ : ٢٧٦ . مرآة الجنان ١ : ٣٦٤ .
(٣) نزهة الألباء ٤٣ .

ولعل من أكبر الأدلة على عظم هذه الحلقة واحتفالها بالناس قصد السائلين اياها ، كما أبانت بعض الأخبار السابقة ، وكما نرى فى قول أبى عبيدة (١) : « كنت فى حلقة يونس فجاء أعرابى . فوقف علينا فقال : « من ينصرنى نصره الله » . فقال يونس : « أتتكم والله من قرب : من يرزقنى رزقه الله . قال الله عز وجل : (من كان يظن أن لن ينصره الله) أى يرزقه الله » .

وقد طال عمر هذه الحلقة بطول عمر صاحبها ، حتى قال أبو زيد الأنصارى (٢) : « جلست الى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس اليه قبلى خلف الأحمر عشرين سنة » . وربما مال بنا الظن الى أن أبا زيد بالغ فى قوله أو تهاون فى ذكر السنين . ولكننا نجد الظاهرة تتكرر عند تلميذ آخر للرجل ، هو أبو عبيدة ، الذى قال(٣) : « اختلفت الى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحى من حفظه » . فهذا التكرار يقطع الشك أو يضعفه ، وخاصة اذا قرناه بأن الرجل عاش قرابة قرن من الزمان .

وعرفنا سابقا أن هذه الحلقة التى امتازت بالعظم وطول العمر ، توفر لها التنوع أيضا ، فكانت مقصد فئات كثيرة من الناس ، كما وصفها الواصفون . ونستطيع أن نطمئن الى هذا الوصف لأن الأخبار المتعددة تؤيده . وقد أوردت آنفا من الأخبار ما يكشف عن كونها مقصد الأعراب للالتقاء بهم والتحدث معهم أو لسؤال المترددين عليها .

وتردد على الحلقة أيضا الشعراء لانشاد ما استحدثوا من شعر ، كما فعل مروان بن أبى حفصة فى مدحته للمهدى التى أراد

---

(١) القفطى ٢ : ٣٦٦ .

(٢) القفطى ٢ : ٣٦٦ . ياقوت ٢٠ : ٦٥ ، ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . ابن العماد ١ : ٣٠١ .

(٣) القفطى ٢ : ٣٦٦ . ياقوت ٢٠ : ٦٥ ، ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . أبو الطيب ٢١ ، المزهر ٢ : ٣٩٩ . ابن العماد ١ : ٣٠١ .

أن يستفتى فيها يونس ، وفعل بشار بن برد فى أبياته التى كانت السبب المباشر فى مقتله .

غير أن الهدف الأول الذى رمى اليه كل الذين قصدوا الحلقة هو « علم العربية » ، الذى برز فيه يونس ، وبرز فيه تلاميذه الملتفون حوله . وكان قصد الكسائى حلقة يونس ضربة حظ للدارسين ، اذ أثار من النقاش ما لفت انظار كثيرين فسجلوا بعضه ، فأعطونا صورة مما كان يدور فى الحلقة ، ومسالك الحوار فيها . وقد أوردت عدة أخبار فى هذا الشأن ، غير أننى أحب أن أضع هنا هذه الصورة المفصلة . قال المازنى (١) : ان مروان بن سعيد المهلبى سأل الكسائى بحضرة يونس : « أى شيء تشبه (أى) من الكلام ؟ » فقال : « ما ومن » . فقال له : « فكيف تقول : لأضربن من فى الدار ؟ » قال : « لأضربن من فى الدار » . قال : « فكيف تقول : لاركبن ما تركب ؟ » قال : « لأركبن ما تركب » . قال : « فكيف تقول : ضربت من فى الدار ؟ » قال : « ضربت من فى الدار » . قال : « فكيف تقول : ركبت ما ركبت ؟ » قال : « ركبت ما ركبت » . قال : « فكيف تقول : لأضربن أيهم فى الدار » . قال : « لأضربن أيهم فى الدار » . قال : « فكيف تقول : ضربت أيهم فى الدار ؟ » قال : « لا يجوز » . قال : « لم ؟ » قال : « (أى) كذا خلقت » .

وكان يونس فى بعض الأحيان هو الذى يثير تلاميذه ، اذ يختار أحدهم ، ويوجه اليه سؤالا ، ليمهد السبيل أمام النقاش . روى العباس بن ميمون قال (٢) : « سمعت الأصمعى — وذكر مروان ابن ابى حفصة فقال : كان مولدا ولم يكن له علم باللغة ، حضرته فى حلقة يونس ، وسأل يونس عن قول زهير :

---

(١) السيراق ٢٧ . مجالس العلماء ٢٤٤ . المزهر ٢ : ٣٧٣ ، الخصائص ٣ : ٢٩٢ .

(٢) الموشح ٢٥١ .

فبتنا عراة عنـد رأس جوادنا   يزاولنا عن نفسـه ونزاوله

فقال مروان : من العرواء من البرد . فقلت له : اخطـأت ، لو كانت من العرواء لقال : فبتنا معروين ، انما عنى أنهم باتوا مشمرين كما يقال : تجرد فلان للأمر » .

وكانت حلقة يونس ـ شأن الحلقات العلمية الحية ـ مسرحا لمعارك أدبية ، اثر خلافات تنشب بين روادها . روى التوزى (١) : « صحف الفيض بن عبد الحميد فى حلقة يونس بن حبيب ـ وانشد بيت ذى الاصبع العدوانى :

عذير الحى من عـدوا   ن كانوا حيـة الأرض

قال الفيض : جنة الأرض ـ فقال خلف الأحمر يهجوه :

لنا صاحب مولع بالخـلاف   كثير الخطاء قليل الصـواب
أشـد لجاجة من الخنفسـاء   وأزهى ـ اذا ما مشى ـ من غراب
اذا ذكروا عنـده عالمـا   ربا حسدا أو رمـاه بعاب
وليس من العلم فى كفـه   اذا ذكر العلم غير التـراب
اضـاليل جمعها شـوكر   واخـرى مولدة لابن داب

فزاد أبان على أبياته ـ وذكر تصحيفا لأبى العتبى ، وقد ذكر رجلا فقال : يكنى أبا الضيم ، وانما هو آبى الضيم ـ فقال أبان :

فلو كان ما قد روى عنهمـا   سـماعا ولكنه من كتـاب
رأى أحرفا شـبهت فى الهجاء   سـواء اذا عدها فى الحساب
فقـال : أبى الضيم يكنى أبا   وليس (أبى) انما هـو آبى
وفى يوم صـفين تصحيفة   وأخـرى له فى حديث الكلاب
وتصحيف فيض بن عبد الحميـ   ـد فى جنة الأرض أو فى الرباب
وعالى بذلك فى صـوته   كقعقعة الرعد بين السحاب »

---

(١) الاوراق ٣٥ .

فكانت حلقة يونس بذلك مجمعا للمذاكرة ، والاستشارة ، والمناشدة ، والمخابرة . قال الأصمعي (١) : « أول من نعى المنصور بالبصرة خلف الأحمر : كنا في حلقة يونس ، وجاء خلف فسلم وقال : « قد طرقت ببكرها أم طبق » فقال يونس : وما ذاك يا أبا محرز ؟ فقال : « فنتجوها خبرا ضخم العنق » فقال : لم أدر بعد . فقال : « موت الامام فلقة من الفلق » فارتفعت الضجة بالاسترجاع .

تلاميذه

لما كان يونس بن حبيب رضى الخلق ، باذلا للعلم ، التف حوله كثير من التلاميذ ، وعظمت حلقته كما رأينا . وكان الرجل محظوظا فيهم ، فبرز منهم كثيرون في علوم شتى .

فاشتهر منهم في اللغة أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وعبد الملك ابن قريب الأصمعي ، وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (٢) ، وأبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (٣) ومحمد بن المستنير قطرب . وطالت صلة أولهم بالرجل فكثرت روايته عنه كثرة واضحة . واختص به آخرهم دون غيره من اللغويين (٤) .

واشتهر منهم في النحو أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه ، وأبو عمر صالح بن اسحاق الجرمي (٥) . وقد اتفق القدماء (٦) على أن سيبويه « روى عنه وأكثر » . ومصداق قولهم الاحصاء الذي قام به الدكتور مهدى المخزومي (٧) وأبان له أن سيبويه ذكر يونس

---

(١) الزمخشري : ربيع الأبرار ٤ : ٦٤ ظ .
(٢) أبو الطيب ٣٩ — ٤٠ . المزهر ٢ : ٣٩٩ . ياقوت ٢٠ : ٦٤ .
(٣) أبو الطيب ٩٨ .
(٤) أبو الطيب ٦٧ . المزهر ٢ : ٤٠٥ . أضداد أبي الطيب ٢٤ .
(٥) السيرافي ٥٦ . البغية ٢ : ٨ . النزهة ٩٨ .
(٦) السيرافي ٢٧ ، ٣٧ . البغية ٢ : ٢٢٩ ، ٣٦٥ . القفطي ٢ : ٣٦٥ . ابن قاضي شهبة ٢٥٢ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ .
(٧) الخليل بن أحمد ٢١٩ .

« فى ثمانين ومائة موضع من كتابه ، وربما أورد ليونس فصلا كاملا كما جاء فى بحث التصغير » . ولهذا السبب صرح صاحب المصون أن سيبويه أدرج أهم أقوال يونس فى كتابه ، قال (١) : « ثم جمع سيبويه علم البرعاء من النحـويين القدماء كلهم ، فذكر فى كتابه مذهب الخليل ، ومذهب يونس ، ومذهب أبى عمـــرو ، ومذهب ابن أبى اسحاق .. » .

ولحسن الحظ أن يونس اطلع عـــلى كتاب سيبويه وأقر كل ما حكاه عنه . قال المبرد (٢) : قال يونس ــ وقد ذكر عنده سيبويه : « اظن هذا الغلام يكذب على الخليل » . فقيل له : « قد روى عنك أشياء فانظر فيها » . فنظر فقال : « صدق فى جميع ما قال ، هو قولى » .

وبسبب هذا القول كان كتاب سيبويه المعتمد الأول لمن يريد أن يدرس آراء يونس ، وأن يثق بأن ما بين يديه من أقوال صادرة حقا عن الرجل . وعلى هذا الأساس أقمت دراستى .

وتتفق المراجع أيضا ان بعض أعلام الكوفيين قصـــدوا يونس ابن حبيب ونقلوا عنه ، أعنى بذلك أبا الحسن على بن حمـــزة الكسائى ، وأبا زكريا يحيى بن زياد الفراء (٣) . أما الكسائى فقد وقع بصرنا عليه عدة مرات فى حلقته . وأما الفراء فقد أخذ عن الرجل نحوا (٤) ، وشعرا (٥) . ولاحظ الأستاذ سعيد الأفغانى خلافا غير

---

(١) ١١٩ .

(٢) السيرافى ٣٧ ، ابو الطيب ٧٦ ــ ٧ ، البغية ٢ : ٢٢٩ . النزهة ٣٩ . الزبيدى ٤٩ .

(٣) السيرافى ٢٧ ، ٤٤ . البغية ٢ : ٣٣٣ ، ٣٦٥ . أبو احمد العسكرى ١٢٥ . المزهر ٢ : ٤١٠ . النزهة ٣١ . القفطى ٢ : ٣٦٦ . ياقوت ٢٠ : ٦٤ . ابن قاضى شهبة ٢٥٢ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ .

(٤) مجالس ثعلب ٤٥٦ .

(٥) السيرافى ٢٨ .

متوقع فى هـــذه المناسبة ، قال (١) : « الطريف تشاد البصريين والكوفيين فى قراءة الفراء على يونس بن حبيب البصرى اســتاذ سيبويه تشادا عــلى غير المنتظر ، فالكوفيون يزعمون أنه استكثر عنه ، والبصريون يدفعون ذلك » .

واشتهر من تلاميذه فى الأدب والأخبـــار أبو محرز خلف بن حيان الأحمر ، وأبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى (٢) ، ان لم أذكر أبا عبيدة لمروره فى اللغويين . ونظرة واحدة فى كتاب طبقات فحول الشعراء للجمحى ، وفى الأخبار التى اوردتها فى دراستى هذه كافية لتبين قدر دين الرجل لأستاذه .

وذكر ابن الجزرى (٣) جماعة من تلاميذه فى قراءة القرآن ، هم « ابنـــه حرمى بن يونس ، وأبو عمـــر الجرمى ، وابراهيم بن الحسن ، وعبد الله بن سليمان ، وعيسى الأســـدى ، وموسى بن عبد الصمد الأبلى » .

وذكر ابن أبى حاتم (٤) رجلين رويا عنه الحديث ، هما زياد ابن عثمان بن زياد بن أبى سفيان ، وقريش بن أنس .

---

(١) فى أصول النحو ١٦٦ .
(٢) المزهر ٢ : ٤٠٥ .
(٣) غاية النهاية ٢ : ٤٠٦ .
(٤) ابن قاضى شهبة ٢٥٢ .

الباب الثاني

المؤلف

حكى ابن الانبارى (١) عن يونس بن حبيب انه قال : « دخلت على أبي عمرو الشيباني وبين يديه قمطر فيه أمناء من الكتب يسيرة ، فقلت له : أيها الشيخ ، هذا جميع علمك ؟ فتبسم الى وقال : هذا من صندوق كبير » .

تدلنا هذه الحكاية ــ ان صحت ــ أن يونس كان لا يتشدد فى أمر حفظ العلم فى الصدور شأن العصر الذى عاش فيــه وشهد انتقال العرب من الاكتفاء بالحفظ الى الاعتماد على التدوين ، وأنه كان يتسمح فى تقييد العلم فى مدونات . ولذلك لا نعجب أن ينسبوا اليه بعض الكتب .

ولكن ما عدد هذه الكتب التى دونها ابن حبيب ، وخلفها لمن جاء بعده من أجيال ؟

أعتقد أن من يعتمد على ماذكرته المراجع فيصرح أنه أصدر أربعة كتب ، لايبعد عن الصواب . أما من يذكر أنها ستة ، فهو ينظر الى ظاهر الاحصاء ولايستبطنه .

فقد نسب القدماء الى الرجل كتاب « معانى القرآن » . ثم صرح ابن النديم وياقوت (٢) (نقلا عنه فى الغالب) أنه له كتابان بهذا الاسم ، واحد كبير ، وآخر صغير .

وتكرر الأمر فى كتاب آخر له . اذ اكتفى ياقوت (٣) بأن قال له كتاب النوادر . وأعلن ابن خلكان والقفطى (٤) ان له كتاب النوادر

---

(١) النزهة ٦٣ .
(٢) الفهرست ٣٤ ، ٤٢ . معجم البلدان ٢٠ : ٦٧ .
(٣) ٢٠ : ٦٧ .
(٤) الوفيات ٢ :٤١٦ . انباه الرواة ٢ : ٣٦٧ .

الصغير ، ولم يذكرا سببا لهذا الوصف . أما ابن النديم (١) فكان صريحا أن الرجل كان له النوادر الكبير ، والنوادر الصغير .

ولما كانت هذه الكتب لم تقع بأيدى العلماء بعد ، كان لابد من الاعتماد على الظنون فيها . وظنى أن الكتاب الصغير والكبير ــ من المعانى أو النوادر ــ انما هو كتاب واحد ، بدأ الرجل فى املائه فكان صغيرا ، ولكنه كان يعـــود اليه بين الفينة والفينة ويضيف اليه ثم يعيد املاءه فى حلقته . فهما اذن نسختان من كتاب واحـــد : أولاهما فى الزمن صغيرة ، وأخيرتهما تحتوى على الأولى كلها ثم تضيف اليها مادة جديدة . وأمثل لذلك بكتابى الابل اللذين طبعا للأصمعى ، ويؤيدان هذا الظن كل التأييد .

---

(١) ٤٢ .

الفصل الأول

الكتب المعروفة

كتاب النـــــوادر

أهم كتاب من كتب يونس ، لدينا معلومات عنه ، ومقتبسات منه ، هو « النوادر » . فقد أخذه منه تلميذه محمد بن سلام ، وأصدر نسخة بقيت الى عصر متأخر . ثم فقدت غير مختصر اختاره منها بعض العلماء ، فوقع في يد السيوطى ، فاحتفظ به أو بجملة صالحة منه فى مزهره . قال السيوطى (١) : « وفى النوادر ليونس ، رواية محمد بن سلام الجمحى عنه ـ وهذا الكتاب لم أقف عليه الا أنى وقفت على منتقى منه بخط الشيخ تاج الدين بن مكتوم النحوى ، وقال : انه كتاب كثير الفائدة قليل الوجود .. » .

وأرجح أن النوادر هو الكتاب الذى أفاد منه الصغانى فى كتابه « ما تفرد به بعض أئمة اللغة » ، المحفوظة مخطوطته فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٤١٨ لغة ، واغترف منه مادة أفرد لها القسم الثانى من الكتاب . فان صح هذا ، كان لنا الحق أن نضيف الى ما سبق أن النوادر له روايتان أخريان ، أشار لهما الصغانى فى قوله معقبا على لفظ التوقة : « كذا وجدته محققا فى نسخة قرئت على ابن دريد ، وعليها خطه ؛ وعلى السيرافى ، وعليها خطه » .

ونستطيع أن نطمئن الى هذا الترجيح حين نعرف أن أبا سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى كان مهتما بالنوادر حتى ألف نقدا عليها . وقد رد أبو محمـــد الحسن بن محمد النسابة التميمى التاهرتى على هذا النقد .

---

(١) المزهر ٢ : ٢٨٩ .

وعلى هذا الأساس أستطيع أن أضع ما بين يدى من أخبار فى ثلاثة أصناف : صنف صرح آخذوه بأنهم استعاروه من النوادر ، وهو ما وضعه السيوطى فى مزهره ؛ وصنف أرجح انه مأخوذ من النوادر ايضا ، وهو ما وضعه الصغانى فى كتابه ؛ وصنف اظن أنه من النوادر لأن نهجه قريب من نهج الصنفين الأولين غير أن آخذيه لا ينسبونه الى كتاب من كتب يونس .

ومن الخطأ أن نعتمد اعتمادا تاما على ما بقى من مقتبسات فى استنباط منهج الكتاب ، والموضوعات التى عنى بها ، والظواهر التى غلبت عليه ، وخاصة من النواحى السلبية . فانها مثلا تخلو من الشعر ، ومن نسبة اى قول الى أحد من شيوخ يونس . ولكننا حين نذكر أن ما أورده السيوطى مأخوذ من منتقى ، وما أورده الصغانى مختار ، يميل بنا الراى الى أن ذلك ربما كان من المختصرين، وأن الكتاب الأصيل ربما كان مختلفا عن ذلك .

ومما يطمئننا الى ذلك وجود كلمتين ينسبهما الرجل الى أحد أساتذته . قيل فى المزهر (١) : « قال يونس فى نوادره : قال أبو عمرو بن العلاء : لا يكون الشواظ الا من النار والنحاس معا » . وقيل (٢) : « قال فى قوله تعالى : « فرهن مقبوضة » قال أبو عمرو ابن العلاء : الرهن والرهان عربيتان ، والرهن فى الرهن أكثر ، والرهان فى الخيل أكثر » .

ولكننا اذا كنا لا نستطيع أن نعتمد على هذه المقتبسات فى الظواهر السلبية ، فاننا نستطيع ذلك فى الايجابية ، مع الاحتراس فى قدر انتشارها فى الكتاب .

وأول ما يتجلى للناظر فى المزهر عناية المؤلف باللهجات العربية ، وخاصة اثنتين منها . فالفصل الذى أورده السيوطى هو فى

---

(١) ١ : ٤٥٣ .
(٢) ٢ : ٢٨٩ .

الحقيقة قائمة طويلة بما بين لهجتى قريش وتميم من خلاف فى بعض الكلمات ، واليك ما أورده السيوطى دون تدخل منى ، فى غير التنظيم على شكل قائمة . قال (١) : « قال يونس فى نوادره :

أهل الحجاز يقولون : خمس عشرة ـ خفيفة لا يحركون الشين . وتميم تثقل وتكسر الشين ، ومنهم من يفتحها .

أهل الحجاز يبطش .	وتميم يبطش .
أهل الحجاز أيهات .	وتميم هيهات .
أهل الحجاز مرية .	وتميم مرية .
أهل الحجاز الحصاد .	وتميم الحصاد .
أهل الحجاز الحج .	وتميم الحج .. » (٢) .

ونجد هذا الاهتمام باللهجات القبلية واضحا فى فصل الصغانى أيضا . فكثيرا ما أورد اللفظ واكتفى فى التعليق عليه بأنه لهجة ، دون أن ينسبها الى واحدة من القبائل ، مثل قوله : « متى : لغة فى متى فى الاستفهام والشرط دون الظرف .. يجن عليه الليل : لغة فى يجن .. أفوق سهمه : لغة فى أفاقه وأوفقه .. » .

وصرح فى أربع مرات بأصحاب هذه اللهجات ، فكانت مرة لتميم ، مثل قوله : « يسمت فى الهداية : لغة تميم فى يسمت » ؛ وثانية لأحد بطون تميم ، مثل قوله : « قال رجل من بنى يربوع فى قولهم : لا يعرف هرا من برة هو من قولهم : أبررت شائى : أى أصدرتها ، وهررت بها : أى أوردتها » ؛ وثالثة لغير تميم ، مثل قوله : « أهل العالية يقولون : ما لقيته منذ اليوم ، وأهل نجد يقولون : مذ اليوم » ؛ والرابعة لهذيل مثل قوله : « أجوبت القدر ، وهذيل تقول : أجيبتها : أى غلفتها » .

---

(١) المزهر ٢ : ٢٧٥ ـ ٦ .

(٢) يختلف ضبط هذه الألفاظ فى اللهجتين .

واذا اعتمدنا على قائمة المزهر نستطيع أن نصنف الظواهر اللغوية التى عنى بها يونس ورصدها فى كتابه على النحو التالى :

١ ـ اختلاف القبائل فى ضبط الكلمات ، وهو أكثر الأنواع ورودا فى القائمة ، مثل قوله : « أهل الحجاز رضوان وتميم رضوان .. أهل الحجاز : على رغمه ، وتميم : على رغمه ... أهل الحجاز : مزرعة ومقبرة ومشرعة ، وتميم : مزرعة ومقبرة ومشرعة » .

ونجد هذه الظاهرة موجودة بمثل هذه الكثرة فى فصل الصغانى ، حتى اننا نستطيع أن نقسمها بدورها الى أنواع جزئية يندرج تحتها أمثلة عدة . فهناك الاختلاف فى ضبط الأفعال ، مثل قوله : « ينثر ما فى الجراب : مثل ينثر ... يخطر ببالى : لغة فى يخطر .. علن الأمر . لغة فى علن وعلن» . والاختلاف فى ضبط الأسماء ، مثل قوله : « فلان من سفلة الناس : لغة فى السفلة والسفلة .. ومصدر ألا ـ أى قصر ـ ألو والو وحذارك منه ، وحذارك منه : بمعنى حذار منه » . والاختلاف فى ضبط المركبات، مثل قوله : « لعمرى ـ بالتحريك : لغة فى لعمرى » .

وكذا الأمر فى المقتبسات المهملة التى لا يبين آخذها عن أى واحد من كتب يونس أخذها . مثال ذلك (١) : « روى أبو عبيدة عن يونس أن من العرب من يقول : هذا فم ، ورأيت فما ، وأخرجه من فمه ، فيلزم الفاء الكسر فى الرفع والنصب والخفض » ، وقول السيوطى (٢) : « قال يونس : غرفت غرفة واحدة ، وفى الاناء غرفة ، ففرق بينهما ، وكذلك قال فى الحسوة والحسوة » .

٢ ـ الاعلال والابدال ، وأورد السيوطى فى قائمته ثلاثة أمثلة لاعلال كل من الواو والياء . فقد تتبادل الواو والياء مكانيهما ، مثل

---

(١) ابن الانبارى : شرح القصائد السبع الطوال ٢٥٠ .

(٢) المزهر ٢ : ٢٦٩ .

قوله : « أهل الحجاز : قلنسية ، وتميم : قلنسوة .. أهل الحجاز : القنية ، وتميم : القنوة » . وتبدل إلواء تاء ، مثل قوله : « أهل الحجاز : تخذت ووخذت ، وتميم اتخذت » ، وتبدل الياء ألفا ، مثل قوله : « أهل الحجاز : القير ، وتميم : القار » . وتقترب الهمزة من حروف العلة فى الابدال ، وفى القائمة مثال أبدلت فيه هاء ، قيل : « تميم : هيهات ، واهل الحجاز : أيهات » .

وأمثلة الاعلال والابدال كثيرة ومتنوعة فى فصل الصغانى . فلا تقتصر على حروف العلة والهمزة بل تتعداها الى الميم . ولكن اكثر الأمثلة كلمات تحتوى على الهمزة أو الواو ، مثل قوله : « كان من الأمر ذيت وذيت ، وذية وذية ، وذياء وذياء : لغات فى ذيت وذيت » وقوله : « أج : لغة فى وج » وقوله « ذرا فوه يذرو ، وذرى يذرى ، وذرأ يذرأ : أى سقط » .

ويليهما فى الكثرة تبادل الميم والنون مكانيهما ، مثل قوله : « الامتطال : الانتطال .. هو شراب بأمقع : مثل بأنقع » . ثم تتساوى بقية الحروف التى يقع فيها ابدال ، مثل قوله : « أتى : بمعنى حتى وعتى .. ادمل من مرضه : أى اندمل » .

وتبين من النظر فى الأمثلة السابقة وغيرها أن بعض أنواع الابدال التى ذكرها المؤلف غير قياسى ، وبعضها الآخر قياسى كان يونس فى غنى عن ذكره ، وخاصة ما اتصل بالهمزة وتخفيفها وابدالها . مثال ذلك ما جاء فى قائمة السيوطى : « أهل الحجاز : جونة ، بلاهمز ، وتميم : جؤنة ، بالهمز » وما جاء فى فصل الصغانى : « الاعاء والاكاء والوقاء : لغات فى الوعاء والوكاء والوقاء » .

٣ ــ الاختلاف فى صيغ الكلمات ، سواء كانت أفعالا أو أسماء . وامثلته فى قائمة السيوطى : « أهل الحجاز : سل ربك ، وتميم : اسأل .. أهل الحجاز : هو الذى ينقد الدراهم ، وتميم : ينتقد .. أهل الحجاز : الكراهة ، وتميم : الكراهية » . وأمثلته فى فصل

الصغانى : « أنجمت السن : مثل نجمت . استنوى : القى النوى ، كنوى ونوى وأنوى .. أجنب الرجل : مثل أجنب وجنب » .

ويستحق الذكر الخاص من هذا الاختلاف ما وقع منه فى المصادر والجموع ، اذ يبدو أن القبائل وقع بينها اختلاف كبير فى صيغهما لفت أنظار المؤرخين فأفردوا الكتب لكل من النوعين . أما يونس فلم يذكر أحد أنه دون كتابا خاصا بأيهما ، ولكن المقتبسات الباقية تدل على أنه وجه اليهما عناية عظيمة ، وخاصة الى الجموع . وقد ذكرت آنفا ما قال من الرهن ، وأضيف اليه هنا بعض ما جاء فى فصل الصغانى ، قال : « الوهدان : الوهاد .. جمع الجذع جذاع وأجذاع وجذعان مثل جذاع وجـذعان .. اللؤمان : اللئام » . بل وصل الأمر الى أن نسبت بعض الجموع اليه مثل آخاء (١) ، والى أن تنبه الى القاعدة العامة ، مثل قوله : « ما كان جمع فعيل من المضاعف يقال فيه فعل وفعل ، مثل قليل وقلل وقلل » .

وأمثل لعنايته بالمصادر بما جاء عند الصغانى : « مصدر شعرت بالشيء شعرة وشـعرة وشـعور ، كالشعر والشعرى والمشعور والمشعورة .. قدمت البصرة قدمانا : أى قدوما » .

٤ ـ الحذف ، بأن يسقط من الكلمة فى احدى اللغات حرف أو أكثر ، سواء كانت الكلمتان : الناقصة والتامة تعودان الى أصل واحد اتفق عليه النحاة ، أو تعودان الى أصلين مختلفين أو أصول اختلف فيها النحاة . مثـال ذلك فى قائمة السيوطى : « أهل الحجاز : ليلة ضحيانة ، وتميم : ليلة اضحيانة . أهل الحجاز : ما رأيته منذ يومين ، ومنذ يومان ، وتميم : مذ يومين ويومان ، فيتفق أهل الحجاز وتميم على الاعراب ، ويختلفون فى مذ ومنذ : فيجعلها أهل الحجاز بالنون وتميم بلا نون » . وأمثلته فى مقتبسات الصغانى : « فلان مضلع لهذا الأمر : أى مضطلع ، وكذلك مطلع ..

---

(١) سر الصناعة ١ : ١٦٦ .

السوذق والسوذنيق : لغتان فى السوذق والسوذنيق . المضرح : المضرحى ، كالقطام للقطامى » .

٥ ــ التذكير والتأنيث . وأورد له السيوطى مثالا واحدا ،قال: « أهل الحجاز : ليست له همة الا الباطل ، وتميم : ليس له همة الا الباطل » . وأورد الصغانى من أمثلته قوله : « ليلة مقمر : مثل مقمرة . يقال : كثرت مال فلان ، يؤنثون المال كما أنثوا القوم ، قال الله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين » .. امرأة حاصنة : مثل حاصن » . واورد ابن سلام (١) : « قال يونس : يقولون : حية ذكر ، ونعامة ذكر ، وشاة ذكر ، وبطة ذكر ؛ ولم أسمعه منه » .

٦ ــ الصيغ الشاذة فى القيـــاس . فالصرفيون لا يجيزون الاشتقاق من أسماء الأجنـــاس ، ويحكمون على ما جاء من ذلك بالشذوذ . ويبدو أن يونس عنى بأمثال هـــذه الصيغ الشاذة ، اذ أورد السيوطى له مثالا منها ، قال (٢) : « فى نوادر يونس : فاكه من الفاكهة ، مثل لابن وتامر » .

وهناك ظواهر لغوية أخرى تتجلى فى الفصـــل الذى اقتبسه الصغانى من يونس ، والمقتبسات المهملة الأخرى عنه ، مثل الصيغ الغريبة ، والمثنيات ، والمركبات ذوات المعنى الغريب ، والألفاظ التى قد تتداخل معانيها ، والألفاظ المماتة ، واختلاف الاعراب . ولكننى لا أتحدث عنها هنا اذ لم أجد نصا صريحا يقطع بكونها من كتاب النوادر .

واحب أن أشير ــ قبل أن أخلص من الحديث عن النوادر ــ الى أن يونس تعرض فيه لبعض الألفاظ القرآنية ، كما رأينا فى الرهن ، وكما نرى فى قول الســــــيوطى (٣) : « قال يونس فى قوله تعالى :

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٣٤ .

(٢) المزهر : ٢ : ٢٧٥ .

(٣) المزهر : ٢ : ٢٨٩ .

« ويهيىء لكم من أمركم مرفقا » : الذى اختاره المرفق فى الأمر ، والمرفق فى اليد » . ويبدو أيضا أنه اتخذ من بعض الآيات شواهد على أقواله ، كما رأينا فى حديثه عن التذكير والتأنيث .

وأشير الى أن يونس من رواد المؤلفين فى النوادر ، اذ لم يسبقه غير أستاذه أبى عمرو بن العلاء ثم ألف فيها من معاصريه القاسم ابن معن الكوفى ، وأبو مالك عمرو بن كركرة ، والكسائى ، وأبو شبل العقيلى ، وأبو المضرحى . ولهذا السبب كانت نوادره أحد الينابيع التى اغترف منها من جاء بعده من اللغويين ، أمثـــال ابن دريد وابن قتيبة وابن سيده (١) .

كتاب الأمثال

ذكر المؤرخون أن يونس بن حبيب ألف كتابا فى الأمثال ، بهذا العنوان . واذا كان الحظ الحسن قد منحنا مختصرا أو منتقى من كتاب النوادر ، فانه لم يفعل ذلك فى هذا الكتاب . ولكنه لم يتخل كل التخلى عنا .

فقد راجعت ما بين أيدينا من كتب الأمثال فلم أعثر على نص صريح مأخوذ منه ، حتى الميدانى الذى حاول الاطلاع على المؤلفات السابقة عليه لم يصرح بالرجوع اليه ، حين قال (٢) : « فطالعت من كتب الأئمة الأعلام ما امتد فى تقصيه نفس الأيام ، مثـــل كتاب أبى عبيدة وأبى عبيد والأصمعى وأبى زيد وأبى عمرو وأبى فيد ، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل بن سلمة ، حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا .. » . ولعل أقرب الأقوال الى التصريح ماجاء فى فصل المقال (٣) : « أورد يونس هذا المثل » ، وان

---

(١) حسين نصار : المعجم العربى ١٣٣ – ١٤٥ .
(٢) مجمع الأمثال ١ : ٧ .
(٣) ٢٥٦ .

كان هذا القـــول لا يقطع بأنه أورده فى كتاب الأمثال ، فلا زال الاحتمال بأن ذلك كان منه فى بعض كتبه الأخرى قائما .

وبالرغم من ذلك عثرت على عدد من الأمثال والأقوال المنسوبة الى يونس ، فى مجمع الأمثال ، وفصل المقال ، واصلاح المنطق ، وغيرها . وعلى هذه المقتبسات أعتمد فى دراستى هذه ، اذ أننى أرجح أن ما أورده الميدانى أخذه من « أمثال » يونس عن طريق أحد تلامذته الذين رجع الى كتبهم . أضف الى ذلك أن هذه المقتبسات تعطينا صورة تقريبية للأمثال التى عنى بها يونس ، والنهج الذى اتبعه فى معاملتها .

ونستطيع أن نستنبط من هذه المقتبسات أن يونس عنى بعدة أنواع من الأمثال ، ولم يقصر جهوده على واحـــد منها . وأكثر ما أخذه الميدانى منه أمثال اجتماعية تتناول العلاقات بين الأفراد ، بل نستطيع أن نضيق المجـــال أكثر من ذلك ونصفها بالعائلية ، اذ تعالج أمورا تكون بين الرجل وبنته ، والمرأة وزوجها أو المتقدمين للزواج منها أو أبنائها أو قريباتها (١) . وأمثل لها بما جاء فى تفسير المثل (جف حجرك ، وطاب نشرك ، أكلت دهشا ، وحطبت قمشا) ، قال الميدانى (٢) : « قال يونس بن حبيب : كان من حديث هذين المثلين أن امرأة زارتها بنت أخيها وبنت أختها فأحسنت تزويرهما . فلما كان عند رجوعهمـــا قالت لابنة أخيها : جف حجرك وطاب نشرك . فسرت الجارية بما قالت لها عمتها . وقالت لابنة أختها : أكلت دهشا وحطبت قمشا . فوجدت بذلك الصبية وشق عليها ما قالت لها خالتها . فانطلقت بنت الأخ الى أمها مسرورة . فقالت لها أمها : ما قالت لك عمتك ؟ فقالت : قالت لى خيرا ودعت لى . قالت : وكيف قالت لك ما قالت ؟ قالت : قالت : جف حجـــرك

---

(١) مجمع الأمثال ١ : ٥٧ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ٢٢٢ ، ٤٩١ ، ٤٩٧ .
(٢) مجمع الأمثال ١ : ١٨١ .

وطاب نشرك . قالت : أى بنيــــة ، ما دعت لك بخـــير ، ولكن دعت بأن لا تشمى ولدا أبدا فيبل حجرك ويغير نشرك . وانطلقت الأخرى الى أمها . فقالت لها أمها : ما قالت لك خالتك ؟ قالت : وما عسى أن تقـــول لى ، دعت الله على ! قالت : وكيف قالت لك ما قالت ؟ قالت : قالت : أكلت دهشا وحطبت قمشا . قالت : بل دعت الله لك يا بنية أن يكثر ولدك فينازعوك فى المال ويقمشوك حطبا » .

ويتصل بهذه الأمثال العائلية أمثال أخرى إقبلية ، لا تقتصر على العلاقات فى داخل الأسرة الواحدة أو بين الأفراد بل تتسع فتتعلق بالعلاقة بين جماعة وأخرى . ولم أجد من هذا النوع غير مثل واحد هو (أسائر اليوم وقد زال الظهر) ، قال الميـــدانى (١) : « قال يونس : أصله أن قوما اغير عليهم . فاستصرخوا بنى عمهم فأبطئوا عنهم حتى اسروا وذهب بهم . ثم جاءوا يسألون عنهم فقال لهم المسئول هذا القول . يضرب فى اليأس من الحاجة ، يقول : أتطمع فيما بعد وقد تبين لك اليأس » .

وقريب من هذه الأمثال الاجتماعية الأمثال التاريخية التى تسرد أخبارا كانت شائعة بين العرب يعدونها فى تاريخهم القديم . ولم أعثر من هذا النوع الا على واحد هو (على أهلها تجنى براقش) . قال الميدانى (٢) : « روى يونس بن حبيب عن أبى عمرو بن العلاء قال : ان براقش امراة كانت لبعض الملوك ، فسافر الملك واستخلفها . وكان لهم موضع اذا فزعوا دخنوا فيه ، فاذا أبصره الجند اجتمعوا . وان جواريها عبثن ليلة فدخن فجاء الجند . فلما اجتمعوا قال لها نصحاؤها : انك ان رددتهم ولم تستعمليهم فى شىء ، ودخنتهم مرة أخرى ، لم يأتك منهم أحد . فأمرتهم فبنوا بنـــاء دون دارها . فلما جاء الملك سأل عن البناء . فأخبروه بالقصة فقال : على أهلها تجنى براقش . فصارت مثلا » .

(١) مجمع الأمثال ١ : ٣٤٨ ، الزمخشرى ، المستقصى ١ : ١٥٣ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٤٧٥ .

وتلى الأمثال العادية (١) الأمثال الاجتماعية فى الكثرة . وأعنى بالأمثال العادية مالم يجروه على لسان أحد ، وكانت عبارته المحكمة الموجـــزة ومضمونه الصادق سببا فى شيوعه . وأمثل له بالمثل (أضىء لى أقدح لك) ، قال الميدانى (٢) : « قال يونس بن حبيب : زعم بعض العرب أنه هزء ، لأنه اذا قال : أضىء لى ، كيف يقول : أقدح لك ، لأن القادر على القدح لا يتعرض لاضاءة غيره ، كأنه يقول : واسنى مع استغنائى عن ذلك . هذا كلامه » .

واخيرا هناك الأمثال المأخوذة من الحيـــوان : من عاداته ، أو القصص والخرافات التى التفت حوله وشاعت بينهم (٣) . ومثالها (انها الابل بسلامتها) الذى قال الميدانى فى شرحه : « قال يونس : زعموا أن الضبع أخذت فصيلا رازما فى دار قوم قد ارتحلوا وخلوه . فجعلت تخليه للكلأ وتأتيه فتغاره اياه ، حتى اذا امتلأ بطنه وسمن أتته لتســـتاقه ، فركضها ركضة دقم فاها . فعند ذلك قالت الضبع : انها الابل بسلامتها . يضرب لمن تزدريه فأخلف ظنك » .

وتوجد بعض الأقوال الشائعة ، التى وجدتها فى بعض المراجع (٤) ، غير اننى لم أرها عند الميدانى ، مثل قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : الحرب خدعة ، وقولهم : لا دريت ولا أتليت . ولكننى لا أستطيع أن أقطع بل أن أرجح أنها من كتاب الأمثـــال ، ولذلك لم أتعرض لها هنا .

ونستطيع أن نستجلى من بعض الأمثلة التى أوردتها وغيرها مما لم أورد بعض الخطوات التى سار عليها يونس فى معالجة الأمثال التى تحدث عنها . فنحن نراه فى بعض الأمثال صرح أنه لم يورد

(١) مجمع الأمثال ١ : ١٠٨ ، ١٥١ ، ٤٣٤ ، ٢ : ١٣٠ . فصل المقال ٩٨ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٤٣٤ . الزمخشرى : المستقصى ١ : ٢١٣ .

(٣) مجمع الأمثال ١ : ٥٨ ، ٢ : ١٩١ . فصل المقال ٢٥٦ .

(٤) ابن دريد : الجمهرة ٣ : ٤٥٩ — ٦٠ . ابن السكيت : اصلاح المنطق ١٢٩، ٣٤٧ ، ٣٥٥ . ابن قتيبة : أدب الكاتب ٣٨ .

التفسير من عنده ، ونسب ذلك الى صاحبه . فعزا تفسير واحد من أمثاله الى « بعض العرب » ، وتفسير واحد آخر الى أستاذه أبي عمرو . وأشار الميداني الى أنه فعل ذلك في تفسير المثل القائل (أعطني حظي من شواية الرضف) ، اذ قال في نهاية ما أورده عن يونس (١) : « هذا ما حكاه يونس عن أبي عمرو » .

ونراه يوجه القسط الأكبر من عنايته الى أصل المثل ، فلا يغفل عنه أبدا ، يليه في الاستئثار بالعناية مضربه ، فهو يختم حديثه عن كل مثل بالظرف الذي يمكن أن يقال فيه . ولكنه أغفل ذلك في مثل المرأة مع ابنتي أخيها وأختها .

وعني في أمثال بتفسير الألفاظ الغريبة التي فيها ، وأهمل ذلك في أمثال أخرى . وتكاد الأمثلة التي أوردتها تكون كلها من النوع الثاني ، مما يدل على كثرتها . وأمثل للنوع الأول بالمثال (بعد الهياط والمياط) ، قال الميداني عنه (٢) : « قال يونس بن حبيب : الهياط : الصياح . والمياط : الدفع ، أي بعد شدة وأذى » .

وصفوة القول أن يونس بن حبيب عني بالفئات المختلفة من الأمثال ، وخاصة الاجتماعية ؛ وأنه رجع الى من أخذ عنهم اللغة في تفسيرها ؛ وأنه اهتم بأصل المثل ومضربه ، فكشف عنهما كشفا طيبا .

ونستطيع أن نقول ان حديث يونس عن الأمثال احتفظ بقيمته حتى بعد أن ألف تلاميذه كتبا في الأمثال ، وأنه كان أحد العمد التي أقام عليها هؤلاء التلاميذ كتبهم . فاغترف منه المؤلفون المتأخرون مباشرة أو عن طريق تلاميذه . ولست أعني بهذا الميداني وحده ، بل أعني معه الزمخشري . حقا انه لم يذكر يونس غير مرة في صدد

---

(١) مجمع الأمثال ١ : ٤٩٧ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ١٠٨ . وانظر ١ : ١٥١ ، ٢ : ١٣٠ . فصل المقال ٩٨ .

تفسير المثل (لو كان درءا لم تئل) قال (١) : « عن يونس : يقال : ما بدابتى درء . ولم تئل : لم تنـــج . أى لو كان الداء الذى بك درءا ــ كما زعمت ــ لم تسلم منه ، انما كان شيئا آخر . يضرب لمن يعظم الأمر الذى يشتكيه ويزيد فى وصفه » . ويختلف هــذا القول عما عند الميدانى ، الذى قال (٢) : « قال يونس : لو كان الأمر كما قلت لم تنج ولكنه دون ما قلت . الدرء : الدفع ، وكل ما يحتاج الى دفعه يسمى درءا ، ومنه درء الأعادى أى شرهم . والوأل : النجاة . يضرب لمن يتهم فى قومه » . والاختلاف فى نص العبارة الأولى لا معناها ويبدو أن أحدهما تصرف فى عبارة يونس .

ولكن الزمخشرى لم يأخذ من يونس تفسير هذا المثل وحده ، بل أخذ تفسير بعض الأمثـــال الأخرى غير أنه لم يصرح بذلك . وانما يتجلى هذا عند مقارنة كلامه بكلام يونس عند الميدانى . قال الزمخشرى مثـلا فى المثـال (٣) (أسائر اليوم وقد زال الظهر) : « وقيل : أصله ان قوما أغير عليهم فاستصرخوا بنى عمهم ، فأبطئوا عليهم حتى أسروا وذهب بهم ، ثم جاءوا يسألون عنهم فقال المسئول ذلك » وقال فى المثال (٤) (أضىء لى أقدح لك) : « قيل : هو تهكم ، اذا قال : أضىء لى ، كيف يقول : أقدح لك » . وقد مرت العبارتان بنا دون تغيير عن يونس .

كتاب معانى القرآن

يماثل هذا الكتاب سابقه فى عدم العثور على مقتبسات صرح أصحابها أنهم أخذوها منه . ولكنه يختلف عنه بعض الشىء . فقد رجحت فى الكتاب السابق أن بعض ما لدى من أقوال منقول عنه ،

---

(١) المستقصى فى امثال العرب ٢ : ٢٩٨ .
(٢) مجمع الأمثال ٢ : ١٣٠ .
(٣) المستقصى ١ : ١٥٣ .
(٤) المستقصى ١ : ٢١٣ .

بل كادت بعض القرائن تجزم بذلك . أما هذا الكتاب فلم أجد سبيلا الى ذلك . حقا ، عثرت على عدة أقوال ليونس تعالج جوانب مختلفة من الآيات القرآنية . ولكنها مجردة من كل قرينة تؤدى بنا الى اثباتها فى كتاب معانى القرآن أو نفيها منه . وبالرغم من ذلك ، لن أهمل هذه الأقوال ، بل أقوم بدراستها هنا لأنها تلقى أضواء على الطريقة العامة لتناول يونس فى دراساته القرآنية .

وأبدأ بالأقوال المتعلقة بمعانى الآيات لقربها من موضوع الكتاب . نستطيع أن نتبين من بعض الأخبار التى بين يدى (١) أن يونس كان فى بعض الأحيان ينظر الى جملة القرآن ، ولا يكتفى بالنظرة المحلية فى آية واحدة ، فيدلى بالحكم الذى يعم الكلمة انى جاءت . قال : « كل شىء فى القرآن (فاتبعه) أى طلبه ، و (أتبعه) يتلوه » .

ونتبين من خبر آخر أنه اعتمد فى تفسيره للمفردات القرآنية على الشعر ، حتى فى الأحوال التى كان الظن الا يعتمد عليه فيها . قال الجرمى (٢) : رأيت يونس النحوى — ومر بحلقة من حلاق المسجد — فقام اليه رجل فسأله عن قول الله جل ذكره : « وأنى لهم التناوش من مكان بعيد » فقال بيده : التناول . وأنشد :

وهى تنوش الحوض نوشا من علا
نوشا به تقطع أجواز الفلا »

فالمكان الذى سئل فيه ، والهيئة التى سئل عليها ، يجعلانه فى حل من الاقتصار على المعنى المجرد ، ولكنه أضاف متطوعا الشاهد الشعرى ، الذى نجده فى غير الخبر السابق أيضا (٣) .

وتكشف بعض الأخبار الأخرى أن يونس انساق وراء معارفه

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ٤٦ . وانظر المزهر ١ : ٤٥٣ .
(٢) السيرافى : أخبار النحويين ٥٧ ، وانظر الفاخر للمفضل بن سلمة ١٦٤ .
(٣) ذيل الأمالى ١٨ .

النحوية ، ووجه عناية خاصة الى ما اتصل بها من أمور قرآنية ، مثل الأدوات .

أورد الزركشي (١) في معاني (من) انها تكون « بمعنى الباء نحو « ينظرون من طرف خفي » حكاه البغوي عن يونس » . وأورد ابن الأنباري (٢) في تفسير قوله تعالى : « ويكأنه لا يفلح الكافرون » عن يعقوب بن السكيت : « أنشدني هذا البيت :

(ويك ان من يكن له نشب يحـ
ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر)

محمد بن سلام الجمحي عن يونس وقال : معناه ألم تر » .

واعتمد يونس على معارفه النحوية في تفسيراته ، كما نرى فيما روى محمد بن سلام عنه حين قال (٣) : « سمعت يونس النحوي يقول في قوله جل وعلا : « فاليوم ننجيك ببدنك » ننجيك : نجعلك على نجوة من الأرض ، وهي المكان المرتفع . ببدنك : بدرعك . وأنشد لأوس بن حجر :

دان مسف فويق الأرض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بعقوته   والمستكن كمن يمشي بقرواح »

بل اعتمد على هذه المعارف النحوية في قراءته أيضا ، وخاصة عندما يدعمها الشعر الفصيح . قال ابن سلام (٤) : « قلت ليونس : كيف تقرأ « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » ؟ فقال : قال الجعدي ، وهو أفصح العرب :

من سبأ الحاضرين مأرب اذ   يبنون من دون سيله العرما

وهو على قراءة أبي عمرو ويونس » .

---

(١) البرهان ٤ : ٤٢٠ .
(٢) شرح القصائد السبع الطوال ٣٥٩ .
(٣) ذيل الأمالي والنوادر ١٨ .
(٤) طبقات فحول الشعراء ١٠٦ . ابن دريد : جمهرة اللغة ٣ : ٢٩٢ .

وطبيعى أن يلتقط ما فى الآيات من مسائل نحوية ويناقشها ، كما روى عنه سيبويه (١) : « وأما قوله عز وجل : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » فانه يجيء على البدل أو كأنه قال : انطلقوا ، فقيل له : من ؟ فقال : بنو فلان . فقوله : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » على هذا فيما زعم يونس » .

وغير بعيد أن يكون تناول بعض القراءات بالتعليل . قال سيبويه (٢) : « سمعنا بعض العرب يقول : الحمد لله رب العالمين ، فسألت عنها يونس ، فزعم أنها عربية » . ويؤيد ذلك المكانة السامية التى كان يشغلها يونس فى علم القراءة ، قال الجاحظ (٣) : « لم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى ابن سيار ثم عثمان ين سعيد بن أسعد ، ثم يونس النحوى ، ثم المعلى » .

ويبدو أن يونس لم يكن من الملتزمين بالتفسير المأثور بل كان يفسر برأيه أحيانا . فنحن لم نجده يورد أى سند فى أقواله السابقة ونجد بعضها ذا صبغة نحوية تدل على صدورها من عنده . ولعل الخبر التالى يؤيد هذا الاستنباط . قال أبو عبيدة عن يونس (٤) : « كنت مع أبى عمرو بن العلاء عند بيت الله الحرام . فجاءنا مقاتل ابن سليمان فجعل يسأل أبا عمرو بن العلاء عن تفسير القرآن فأكثر . ثم قال له : ما معنى قوله تعالى « مثل الجنة التى وعد المتقون » فقال أبو عمرو : لا أدرى . فقلت له : أضجرت الشيخ من كثرة ما تسأل ، أراد صفة الجنة التى وعد المتقون . فقال مقاتل لأبى عمرو : هو كما قال ؟ فقال : ان كان سمع فخذ عنه . فقال

(١) الكتاب ١ : ٢٣٦ ، وانظر ١ : ١٧٣ ، ٢٤٩ ، ومجاز القرآن ٢ : ٢١ .
(٢) الكتاب ١ : ٢٤٨ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٦٨ .
(٤) مجالس العلماء ٦٥ .

مقاتل : ما أفتيتنى ، سمعت (١) . فقال : لو لم أسمع من الثقات ما أفتيتك أو كلام مثل نحوه » .

وبين يدى خبر آخر يدل على أن يونس روى بعض تفسيره عن بعض المشهورين من المفسرين . روى محمد ابن اسحاق (٢) عن يونس عن الزهرى فى قول الله عز وجـــل : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » معناه ما الذى علمناه شعر وما ينبغى له أن يبلغ عنا شعراً .

كتاب اللغات

عنى العرب فى هذا الحقل العلمى بنوعين من التأليف : يقتصر الأول منهما على « اللغات فى القرآن » ، ويمد بصره الى ما يحتوى عليه الكتاب الكريم من ألفاظ مأخوذة من لهجات القبائل المتفرقة فى شبه الجزيرة العربية ، وقد يديم النظر فى بعض هذه الألفاظ محاولا أن يتعرف على أصولها البعيدة ، ولو كانت خارج شبه الجزيرة . ويتسع النوع الثانى فلا يقيد نفسه بالمجال القرآنى بل ينظر الى اللهجات القبلية كلها ، أو القبائل الفصيحة على أقل تقدير . وقلما يأبه هذا النوع بالتعمق الى الأصول غير العربية .

فاذا كان كتاب يونس من النوع الأول لم يكن رائدا له . فقد سبقه اليه عبد الله بن عباس ، وأكثر من الحديث فيه ، حتى جمعت أقواله فى رسالة صغيرة ، غالبت الأزمان ، ووجدت من يطبعها فى عصرنا هذا . ولا نستطيع أن نتمسك بالعنوان فنقطع بأن كتاب يونس من النوع الثانى ، لأن بعض الكتاب كانوا يختصرون عناوين الكتب التى يذكرونها ، فربما كان العنوان الذى بين أيدينا مختصرا .

---

(١) يريد لم تفتنى بل رويت ما سمعت .
(٢) السيرافى ٥٦ .

واذا كان الكتاب من النوع الثانى حاز يونس شرف السبق الى التأليف فيه ، فهو أول لغوى ينسب اليه كتاب من هذا النوع . ولعلنا نجد بعض الاطمئنان الى أن الكتاب من هذا النوع حين نرى ما بين أيدينا من أقوال ليونس قلما يتعرض للغات فى القرآن ، بينما كثير منها يعالج اللغات القبلية . وقد تجلى لنا ذلك فيما فعل فى كتاب النوادر . وتجلى لنا أنه لم يقتصر على ظاهرة أو اثنتين من الظواهر اللغوية فى هذا الصدد ، بل تنبه الى ظواهر كثيرة ورصدها . وأضفت الى ذلك أن الرجل رصد ظواهر غير التى تحدثت عنها الا أننى لم أجد من القرائن ما يجعلنى أضعها فى النوادر .

كل هذا يمنحنا صورة ما عن هذا الكتاب ، الذى لم أعثر على اقتباس واحد صريح منه ، ولا أستطيع أن أميل فى أى قول عثرت عليه الى أنه منه ، لأن الرجل كان يهوى الحديث عن اللغات القبلية ، ويبث هذا الحديث فى كتبه المختلفة .

الفصل الثانى

الكتب غير المعروفة

كان حديثى فى الفصول السابقة عن الكتب التى نسبها القدماء الى يونس بن حبيب . وقد حاولت ـ بالرغم من ضياعها ـ أن أؤلف لها صورة تجعلنا قادرين على التعرف عليها ، وتمييز أهدافها واتجاهاتها وخصائصها ، ومنحها مكانتها فى زمنها ، ولكن بقيت كلمة يجب أن تقال عن مؤلفات الرجل .

الموازنة بين الشعراء

قال بروكلمن فى ترجمته ليونس بن حبيب (١) : « له موازنة بين قدامى الشعراء ، ذكرها ياقوت فى الارشاد ٧ : ٣١٠ » .

وقد فهمت من هذا الكلام أن يونس ألف كتابا فى الموازنة بين الشعراء القدماء ، وربما فعل ذلك قارىء بروكلمن . ولكننا حين نرجع الى المصدر الذى استقى منه بروكلمن ، أعنى معجم الأدباء لياقوت (٢) ، نتبين أن هذا الفهم غير صحيح ، اذ لم يصرح ياقوت بأن يونس ألف مثل هذا النـــوع من الكتب ، ولا أومأ الى ذلك . وانما اورد ياقوت عدة أخبار تحكى أسئلة قدمت الى يونس عن رأيه فى بعض الشعراء الجاهليين والأمويين ، والموازنة بينهم ، وردوده عليها .

مثال ذلك ما رواه محمد بن سلام قال : « سألت يونس النحوى عن أشعر الناس ، فقال : لا أومى الى رجل بعينه ، ولكنى أقول :

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣١ (الترجمة العربية) .
(٢) ٢٠ : ٦٥ .

امرؤ القيس اذا ركب ، والنابغة اذا رهب ، وزهـــير اذا رغب ، والأعشى اذا طرب » .

القياس فى النحو

كذلك قال بروكلمن (١) : « وقيل : انه صنف كتاب القياس فى النحو » . ولكنه لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه فى هذا القول ، ولم اعثر أنا على من أشار الى ذلك . وأعتقد أن التأليف فى القياس فى عصر يونس غريب ، وغير متوقع . فقد تنبه الناس الى القياس ، وأكثروا من التحدث عنه فى الجيل التالى ليونس ، أى جيـــل تلاميذه ، بعد ما وقع الخلاف بين العلماء من البصرة والكوفة ، وأخذ الناس يحسون أن كلا من الفريقين يختلف عن الآخر فى منحاه ونهجه . ووصل الأمر الى أن شارك الشعراء فى الحديث عن الأقيسة النحوية (٢) .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠ .
(٢) نزهة الألباء ٥٤ — ٥٥ .

الباب الثالث

الدارس

ذكرت مراراً فى الصفحات السابقة أن يونس بن حبيب درس « علوم العربية » أو عنى بها ، ولم أحاول أن أحدد واحداً معيناً من العلوم . وقد استخدم القدماء أنفسهم عبارة « علم العربية » ، فأطلقوها على اللغة والنحو . ولكن هذا التصور — فى اعتقادى — قاصر ، لا يتسع لكل ما تحدث فيه علماء هذا العصر ، من « علماء العربية » .

فالعصر الذى عاش فيه يونس عصر مبكر ، كان « علماء العربية » يعنون فيه بأشياء متعددة ، ولكنها جميعا تستهدف ابراز صـــورة المجتمع العربى الخالص فى جاهليته واسلامه : لغته ، أدبه ، حياته ، تقاليده ، قيمه . وهى جميعا تعتمد على ما بقى بين يديها من آثار هذا المجتمع من أجل بلوغ هدفها ، ولم تجد من هذه الآثار غـــير « الشعر » . وهى جميعا تنظر الى الشعر نظرة واحدة ، وتعامله معاملة واحدة ، وتسلك طريقة واحدة فى استخلاص ما يعنيها من حقائق منه .

فقد كان الشعر عندهم (١) : « ديوان العـــرب ، به حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديث صحابته والتابعين » ولذلك كان الشعر البرهان على صحة ما يقال ، ويدعم الأخبار التى يرد فيها (٢) .

فلا عجب أن تتداخل اهتمامات هؤلاء الدارسين « للمجتمع

(١) السيوطى : المزهر ٢ : ٢٣٥ عن أحمد بن فارس . وانظر ابن سلام ٢٢ .
(٢) عبيد بن شرية : اخباره ٣١٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، وغيرها .

العربى » ولا تتضح اختصاصاتهم وضوحا كافيا ، يجعلنا نعطى كلا منهم صفة واحدة . فاننا حين نحاول أن نصف ابن الكلبى وأبا عبيدة والمدائنى تستبد بنا الحيرة ، اذ نجد فيما كتبوا تاريخا ولغة وأدبا ..

وقد وقع القدماء أنفسهم فى مثل حيرتنا ، ولم يتخلصوا منها الا بابتكار وصف عام مبهم أطلقوه عليهم ، فهم عندهم «أخباريون» ، يجمعون أخبار العرب المتنوعة الاتجاهات والطوابع ، والتى لا تجعل من أحدهم مؤرخا خالصا ، أو لغويا محضا ، أو ناقدا بحتا أو ما الى ذلك .

واذا كان يونس بن حبيب لم يتسع الحقل الذى عمل فيه اتساعه عند الرجال الذين ذكرتهم ، الا أن حقله كان على شيء من الاتساع ، وكان ما عنى بالاشراف عليه ورعايته فى هذا الحقل على شيء من التنوع .

واذا كانت اهتمامات هؤلاء الرجال من التداخل بحيث لم يرض القدماء بالفصل بينها ، ووضع الحدود المميزة لها ، وأطلقوا عليها اسما جامعا ، الا أننى أوثر الا أتبع القدماء فى ذلك وأوثر محاولة الفصل بين الاتجاهات المختلفة التى سار فيها يونس ، تيسيرا على القارىء ، وتوضيحا للصورة ، وتمهيدا لاعطاء كل جانب قدره من جوانب الرجل ، بالرغم من ايمانى العميق بأن جميع هذه الجوانب لرجل واحد : فهى تترابط ، بل تتواشج وتتداخل وتمتزج فتنتهى بأن تكون ذلك الرجل .

وأوثر أن أجمع هذه الجوانب فى فئتين : تلتصق أولاهما بالشعر : ترويه ، وتفسره ، وتنقده ؛ فصار الشعر بذلك مادتها وهدفها . وهى لذلك دراسة قد نسميها بالأدبية . أما الفئة الثانية فقد يليق بها اسم الدراسة اللغوية ، اذ تستهدف اللغة والنحو . حقا ان هذه الدراسة تعتمد على الشعر ايضا ، ولكنه مادتها حسب ، أما هدفها فالكشف عن المسالك اللغوية التى سار فيها العرب فى تفاهمهم .

الفصل الأول

الدراســـات الأدبية

الرواية

كان كل شيء فى حياة يونس بن حبيب ، والمدينة التى عاش فيها ، والعصر الذى كان أحد أبنائه ، يدعوه الى البحث عن الشعر العربى ، وحفظه ، وروايته .

فقد أخذ عن جماعة من الأعراب ، كان بعضهم يقول الشعر مثل أبى مهدية ، ان لم يكونوا كلهم من ناظميه . وأخذ عن جماعة من العلماء عرفوا برواية الشعر مثل أبى عمرو بن العلاء وأبى الخطاب الأخفش . وضمت حلقته جماعة كبيرة من الشعراء ، ومن العلماء بالشعر مثل خلف الأحمر ، وهو من أشهر رواة الشعر . واتصل بجماعة من الشـــعراء مستفيدا منهم ، مثـــل رؤبة وذى الرمة والفرزدق . واتصل به جماعة من الشعراء مستفيدين منه مثـل مروان بن أبى حفصة .

لا عجب اذن أن يستجيب يونس لهذه الدعوة ، ويعنى برواية الشعر . فأخذ الشعر القديم عن شيوخه ، قال سيبويه (١) : « قال عمرو بن كلثوم :

صددت الكأس عنا أم عمـــرو   وكان الكأس مجـــراها اليمينا

---

(١) الكتاب ١ : ٢٠١ .

أي على ذات اليمين . حدثنا بذلك يونس عن أبي عمرو ، وهو رأيه » . وأخذه أيضا عمن التقى منهم من العرب . قال سيبويه (١) : « زعم يونس أن العرب تنشد هذا البيت لهدبة ابن خشرم :

فان تك في أموالنا لا نضق بها
ذراعا ، وان صبر فنصبر للصبر »

وقال أيضا (٢) : « زعم يونس أن ناسا من العرب يقولون :

أنصب للمنية تعتريهم رجالى أم هم درج السيول »

أما الشعر المعاصر له فأخذه من أفواه ناظميه . قال سيبويه (٣) :

« يقوى ذلك أن يونس وعيسى جميعا زعما أن رؤبة كان ينشد هذا البيت نصبا :

* فيها ازدهاف أيما ازدهاف *

وقال أيضا (٤) : « زعم يونس أنه سمع الفرزدق ينشد :

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشارى
شغارة تقذ الفصيل برجلها فطارة لقوادم الابكار

وتدلنا الأبيات الباقية لدينا من رواية يونس أنه عنى بعصور الاستشهاد اللغوى كلها ، وبالفصحاء من الشعراء على اختلاف مراتبهم واتجاهاتهم . فقد روى أبياتا من الشعر الجاهلى ، بعضها من نظم كبار شعراء الجاهلية كأصحاب المعلقات ومن فى مرتبتهم ، مثل امرىء القيس وعمرو بن كلثوم والنابغة الذبيانى والأعشى وعبيد

---

(١) الكتاب ١ : ١٣١ . وانظر ٧٧ ، ١٤٠ ، ٢٥٠ .
(٢) الكتاب ١ : ٢٠٧ . وانظر ٢٤٠ . والبيت لابراهيم بن هرمة . انظر ٢٠٦ .
(٣) الكتاب ١ : ١٨٢ . وانظر ١٦١ .
(٤) الكتاب ١ : ٢٥٣ .

ابن الأبرص . قال محمد بن سلام الجمحى (١) : « سألت يونس عن قول الله تعالى : « انما أنت من المسحرين » فقال : من المعللين ، وانشد لامرىء القيس :

عصـــــافير وذبان ودود ونسحر بالطعام وبالشراب »

وروى أيضا لجماعة من أقدم من نعرف من شعراء الجاهلية مثل المستوغر بن ربيعة ، والصعاليك مثل عروة بن الورد ، وسكان الحضر مثل عدى بن زيد العبادى ، والنساء مثل الخرنق أخت طرفة بن العبد . قال سيبويه (٢) : « قال عروة الصعاليك :

سقونى الخمـــر ثم تكنفونى عــــداة الله من كذب وزور

انما شتمهم بشيء قد استقر عند المخاطبين . وقال النابغة :

لعمرى وما عمـرى على بهين لقد نطقت بطلا عـــلى الأقارع
أقارع عوف لا أحاول غـــيرها وجوه قرود تبتغى من تجادع

وزعم يونس أنك ــ ان شئت ــ رفعت البيتين جميعا على الابتداء ، تضمر فى نفسك شيئا لو أظهرته لم يكن ما بعده الا رفعا » .

ويبلغ الشعراء الاسلاميون الذين روى لهم أشـــعارا ضعف الجاهليين ، ويزداد العدد اذا أضفنا اليهم المخضرمين . وقد روى للفحول منهم مثـــل لبيد والحطيئة والنابغة الجعدى وأبى ذؤيب الهذلى وجـــرير والأخطل وكثير والراعى وذى الرمة والعجاج وأبى النجم ، فضلا عن رؤبة والفرزدق اللذين أولاهما من العنـــاية مالم يوله لأحد ، واعتمد على شعرهما اعتمادا لا يماثله اعتماده على شعر غيرهما . قال سيبويه : « أنشدنا يونس لجرير :

اياك أنت وعبـــد المسيح أن تقربا قبــــلة المسجد

أنشدناه منصوبا وزعم أن العرب كذا تنشده » (٣) .

---

(١) المفضل بن سلمة : الفاخر ١٦٤ .
(٢) الكتاب ١ : ٢٥٢ .
(٣) الكتاب ١ : ١٤٠ .

وروى لغير الفحول من الاسلاميين أيضا ، دون أن يقتصر على فئة معينة منهم . فقد روى لشعراء الغزل مثل جميل بثينة ؛ وشعراء الهجاء مثل اللعين المنقرى ، ويزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى ، وجرير بن خرقاء العجلى ؛ وشعراء المدح مثل نصيب وعبد الله بن همام السلولى ؛ وشعراء العواطف الشخصية مثل هدبة ابن الخشرم وأبى الأسود الدؤلى ؛ وغيرهم من الخاملين مثل الجارود بن أبى سبرة وابن رباح الشارزنجى وأبى دواد الرؤاسى . قال سيبويه (١) : « قال الهذلى :

فقلت : تحمل فوق طوقك انها مطبعة من يأتها لا يضيرها

هكذا أنشدناه يونس » .

وامتد نطاق من روى يونس شعرهم واستشهد بهم حتى شمل بعض مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، مثل ابراهيم ابن هرمة ، الذى عده النحويون ساقة الشعراء وآخر من يستشهد بهم . أما العباسيون الخالصون الذين سموا بالمولدين فلم أجد يونس يروى لهم شيئا ، بالرغم من اتصال بعضهم به كمروان ابن أبى حفصة .

واذا نظرنا فى قائمة الشعراء الذين روى لهم يونس تجلت لنا بعض الظواهر التى نستطيع أن نرصدها على النحو التالى :

كان القسط الأكبر من عناية الرجل موجها الى الشعراء الاسلاميين ، وخاصة من عاش منهم فى العهد الأموى . فعدد الجاهليين الخلص الذين روى لهم قليل جدا ، ولا يخرج عن نطاق الفحول غير هنى بن أحمر الكنانى والخرنق والمستوغر . والمخضرمون

---

(١) الكتاب ١ : ٤٣٨ .

روى لأكابرهم ما عدا كعب بن زهير وحسان بن ثابت اللذين لم أجد شعرا لهما عنده . فاذا انتقلنا الى العصر الأموى لم تكد نجد فحلا لم يرو له شيئا .

وبرز بين الأمويين رؤبة والفرزدق خاصة . أما رؤبة فقد كثر حديثى عنه ولا أحب أن أعود الى ذلك . وأما الفرزدق فقد بلغ من اهتمام يونس به أن اضطر الى الاهتمام بجماعة من الشعراء ما كان يأبه لهم لولاه . فقد كانوا على اتصال ما بالفرزدق ، أو وقعت بينهم أحداث مشتركة ، أرغمت الرجل على رواية بعض اشعارهم .

فلم أجد عنده لجرير بن خرقاء العجلى الا ما رد به على الفرزدق . قال ابن سلام (١) : « روى عن يونس أن الفرزدق لما قال :

تصرم منى ود بكر بن وائل   وما خلت دهرى ودهم يتصرم
قوارص تأتينى فيحتقرونها   وقد يملأ القطر الاناء فيفعم

— وكان قد نزل عليهم حين هرب من زياد — فقال جرير ابن خرقاء يجيبه :

لقد بوأتك الدار بكر بن وائل
وردت لك الأحشاء اذ أنت مجرم
ليالى تمنى أن تكون حمامة
بمكة يغشاها الستار المحرم
فان تنأ عنا لا تضرنا وان تعد
تجدنا على العهد الذى كنت تعلم »

ولم أجد لنصيب غير الأبيات التى قالها للخليفة الأموى حين غضب من الفرزدق . قال المرتضى (٢) : « أبو عبيدة عن يونس قال :

---

(١) المرتضى : الأمالى ١ : ٣٠٤ .
(٢) الأمالى ١ : ٦٠ .

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك ، وعنده نصيب الشاعر . فقال له سليمان : أنشدنى ! فأنشده .. (أبياتا فى الفخر) فاسود وجه سليمان وغاظه فعله ، وكان يظن أنه ينشده مديحا له . فلما رأى نصيب ذلك قال : ألا أنشدك ؟ فأنشده :

أقـــول لركب قافـــلين لقيتهم
قفاذات أوشـــال ومولاك قارب :

قفـوا خبرونى عن ســليمان اننى
لمعـــروفه من أهـــل ودان طالب

فعاجوا فأثنـــوا بالذى أنت أهـــله
ولو سكتوا أثنت عليك الحقـــائب

فقال له سليمان : أنت أشعر أهل جلدتك . وفى بعض الأخبـار أن الفرزدق قال ذلك فى نصيب حين سأله عنه سليمان » .

بل بلغ من فرط عنايته بالفرزدق أن عنى بمن حاول أن يكون على صلة به ولم يفلح . روى ابن سلام (١) : « قال اللعين :

سـأحكم بين كلب بنى كليب — وبين القين قين بنى عقـــال
فان الكلب مطعمـــه خبيث — وان القين يعمل فى ســفال
وقـد حسر البعيث واقعـدته — لئيمات المنـاخر والسبال
ويترك جده الخطفى جــــرير — ويندب حاجبا وبنى عقـــال

قال ابن ســلام : وسمعت يونس يقول ؟ فلم يلتفتا لقتــه ، وأراد أن يذكراه فيرفعه ذلك ، فقال :

فما بقيـــا عـــلى تركتمانى — ولكن خفتما صرد النبال » .

واذا نظرنا فى الأشعار الباقية بين أيدينا من رواية يونس نجد أنها تمنحنا أسبابا متعددة حدت به الى العناية بها . وأول هــذه

---

(١) الطبقات ٣٤٢ .

الأسباب الاستشهاد بها في ميداني النحو واللغة . فقد كان كثير من هذه الأشعار يضم ظواهر لغوية خاصة لفتت نظر ذلك الرجل المعنى برصد هذه الظواهر ، فعنى بها وتتبعها ومحصها . وعندما أحس سيبويه منه ذلك اتخذ منه أحد مراجعه في الشواهد . قال البغدادي (١) : « فاعتمد (سيبويه) على شيوخه ، ونسب الانشاد اليهم ، فيقول : أنشدنا ، يعني الخليل ؛ ويقول : أنشدنا يونس . . » .
ومثال ذلك ما رواه سيبويه قال (٢) : « نظير هذا النصب من الشعر قول الخرنق :

لا يبعدن قومي الذين هم   سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك   والطيبون معاقد الأزر

فرفع الطيبين . . وزعم يونس أن من العرب من يقول :

النازلون بكل معترك   والطيبين

فهذا مثل والصابرين في قوله تعالى : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ») .

وكان سبب عنايته ببعض الأشعار اتصالها ببعض الأخبار التي يعنى بها ، مؤيدة لها ، ومتممة لوقائعها ، وموضحة لأحداثها . واذ كان يونس شديد الاهتمام بالأخبار كان غير عجيب أن يعنى بهذه الأشعار وفق ما شاع عند العرب من مناهج وتصورات . مثال ذلك ما رواه الجاحظ عن أبي عبيدة قال (٣) : « حدثني يونس قال : لما بنى فيل مولى زياد داره وحمامه بالسبابجة عمل طعاما لأصحاب زياد ، ودعاهم الى داره وأدخلهم حمامه . فلما خرجوا منه غداهم ثم ركب وغبر في وجوههم . فقال أبو الأسود الدئلي :

لعمر أبيك ما حمام كسرى   على الثلثين من حمام فيل

---

(١) خزانة الأدب ١ : ٣٣٣ .
(٢) الكتاب ١ : ٢٤٩ .
(٣) الحيوان ٧ : ٨٣ .

وقال الجارود بن أبى سبرة :

وما ارقاصـــنا خلف الموالى كسنتنا على عهد الرســول »

ونستطيع أن نتبين فئة ثالثة من الشعر كان الاعجاب هو الذى ساق يونس الى حفظها وروايتها . ومثالها ما حكاه ابن خلكان (١) : « قال يونس : تقول العرب : فرقة الأحباب سقم الألباب . وأنشد :

شــيئان لو بكت الدماء عليهما عينــــاى حتى يؤذنا بذهاب

لم يبلغا المعشـــار من حقيهما شرخ الشباب وفرقة الأحباب »

ويتجلى لنا فى هــذه الأشعار أيضا أن أكثرها أبيات مفردة ، أو بيتان . ولا نعجب كثيرا لغلبة هذه الظاهرة على ما أورده سيبويه منهــا ، لأنه فعـــل ذلك اذ عدها شواهد . ولم يعن النحويون فى شواهدهم عـــادة الا بالبيت الذى يمثل القاعدة النحوية التى يتحدثون عنها . ونستدل من هذا أن الاقتصار على البيت والاثنين ربما كان من يونس نفسه فى أثناء علاجه النحو ، وربما كان من سيبويه الذى اختار من رواية يونس ما فيه الشاهد النحوى ، وان كنت أميل الى الظن الأول .

وأما مرويات يونس فى غير كتاب سيبويه فلا تقتصر عـــلى الأبيات ، بل تطول وتصير مقطوعات ، وخاصة فى طبقات فحول الشعراء لابن سلام . روى عن يونس مرة (٢) : « أن يزيد بن ربيعة ابن مفرغ كان رجـــلا من يحصب ، وكان عديدا لبنى أسيد بن أبى العيص بن أميـــة ، وكان منزله بالبصرة ، وكان شريرا هجاء للناس . فصحب عباد بن زياد ــ وعباد يومئذ على سجستان ، عاملا لعبيد الله بن زياد ، وعبيد الله يومئذ على البصرة لمعاوية ــ فهجا ابن مفرغ عبادا ، فبلغه . وكان على ابن مفرغ دين ، فاستعدى

---

(١) ٢ : ٤١٧ . ابن العماد : شذرات الذهب ١ : ٣٠١ .

(٢) الطبقات ٥٥٤ .

عليه . فباع عباد ماله فى دينه وقضى الغرماء . وكان فيما بيع عليه غلام يقال له برد ، وجارية يقال لها أراكة ، فقال :

أصرمت حبـــلك من أمـــامه	من بعـــد أيام برامـــــه
تركى ســـعيدا ذا النـــدى	والبيت ترفعه الدعـــــامه
وتبعت عبـــد بنى عـــلا	ج ، تلك أشراط القيـــامه
جاءت به حبشـــــية	ســـكاء تحسبها نعامه
من نسوة ســـــود الوجو	ه ترى عليهن الدمــــامه
وشريت بــــردا ، ليتنى	من بعد برد كنت هـــامه
يا هامة تدعـــــو الصـدى	بين المشـــقر واليمـــامه
العبـــد يقرع بالعصــــا	والحـــر تكفيه الملامـــه
والريح تبكى شــــجوها	والبرق يلمع فى الغمـــامه
ورمقتهـــــا فوجـــدتها	كالضلع ليس له اســـتقامه

وأمثال هذه المقطوعة ، وما يقل عنها ، وما يزيد ، غير قليل فى الطبقات . ونشعر فى بعضها أن يونس ربما روى القصيدة كلها ، فاقتصر ابن سلام على ما أورده منها . ولعل الخبر التالى يبين أن يونس روى بعض القصائد المفرطة فى الطول . قال السيوطى (١) : « زعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد . وقال : انما هو كلام ، وأجودهم كلاما أشعرهم ، والعجاج ليس فى شـــعره شىء يستطيع أحد أن يقول : لو كان مكانه غيره لكان أجود . وذكر أنه صنع أرجوزته :

* قد جبر الدين الاله فجبر *

فى نحو من مئتى بيت ، وهى موقوفة مقيدة ، ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها » .

وكثرة الأخبار بين رؤبة والفرزدق ويونس ، وتحدثه عنهما ، واستشهاده بشعرهما ، وحكايته أخبارهما ، تجعلنى أميل الى أنه

---

(١) المزهـــر ٢ : ٤٨٤ .

كان يحفظ كثيرا من شعرهما ان لم أقل ديوانيهما . ولكنني لم أعثر في أي من المراجع التي أفدت منها على أنه روى ديوانيهما ، بل لم أعثر على من ذكر أنه روى ديوان شاعر جاهلي أو اسلامي . ويبدو لي أن يونس لم يكن ممن عنوا برواية الشعر لذاته ، وانما كان اهتمامه به من اجل ما يحتوى عليه من لغة ونحو وأخبار ، فروى منه ما اتصل باهتماماته هذه ، ولم يأبه لرواية ديوان كامل لشاعر مثل أستاذه أبي عمرو بن العلاء أو تلاميذه مثل الأصمعي وأبي عبيدة وخلف الأحمر . ولكن هذا لم يمنعه أن يكون له نظر في الشعر يسر له نقد بعض الشعراء كزهير بن أبي سلمى والنابغة الجعدي وعبيد الله ابن قيس الرقيات .

وقد أثار بعض ما رواه يونس عواصف من النقد ، والخصومة بين الدارسين والأدباء . فقد روى محمد بن سلام (١) عن يونس الأبيات التالية التي نسبها الى المستوغر بن ربيعة بن كعب التميمي ، الذي عده من أقدم الشعراء العرب الموثوق من وجودهم :

ولقد سئمت من الحياة وطولها	وازددت من عدد السنين مئينا
مئة أتت من بعـــدها مئتان لي	وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقا الا كما قد فاتنـــا	يوم يكر وليـــــلة تحدونا

وانتهز الدكتور طه حسين (٢) هـــذه الفرصة السانحة وطعن ابن سلام طعنة قاصمة . فقد رأى فيه واحـــدا من أكبر العلماء الذين شعروا بما وقع في الشعر من انتحال ، وتتبع الشعر المنتحل ، ونبه عليه . وبالرغم من ذلك ، غفل عن بعض هذا الشعر وانخدع به ، فوثق به وما كان مستحقا لهذه الثقة . والحق مع الدكتور طه ، فواضح على الأبيات أنها من الشعر الشعبي ، الذي كانت

---

(١) الطبقـــات ٢٩ .

(٢) في الأدب الجاهلي ١٥٥ . وانظر طه احمد ابراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٨٧ .

تزخر به القصص الدائعة بين العرب يسمرون بها فى لياليهم ، وتدور حول المعمرين ، كما يكشفها كتاب أبى حاتم السجستانى . ويؤيدنا فى هذه النظرة الأثر الذى تركته اللهجة القبلية فى الفعل (بقا) اذ لم يأت على اللغة الفصيحة (بقى) .

كذلك خالف يونس بعض العلماء فى نسبة بعض ما رواه من شعر . فقد نسب الحائية المشهورة الى عبيد بن الأبرص . قال ابن سلام (١) : « أخبرنى يونس بن حبيب قال : قيل لذى الرمة : من أحسن الناس وصفا للمطر ؟ فذكروا قول عبيد :

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قـام بالراح

فمن بنجوته كمن بمحفـله والمستكن كمن يمشى بقرواح

فجعلها يونس لعبيد ، وعلى ذلك كان اجتماعنا ، فلما قدم المفضل صرفها الى أوس بن حجر » .

ويتضح من قول ابن سلام أن يونس لم ينفرد بقوله بل كان تابعا فيه لجماعة أهل البصرة ، فلما جاء المفضل الكوفى صرفهم عن رأيهم . ويبدو أن غلبة رأى المفضل كانت تامة بحيث أوقعت بعض العلماء فى الخطأ ، اذ عمم هذا الرأى وشمل به يونس نفسه . قيل فى ذيل الأمالى والنوادر (٢) : « محمد بن سلام قال : سمعت يونس النحوى يقول فى قوله جل وعلا : « فاليوم ننجيك ببدنك » ننجيك : نجعلك على نجـوة من الأرض ، وهى المكان المرتفع . ببدنك : بدرعك . وأنشد لأوس بن حجر :

دان مسف . . . . . . » .

ونسب ميمية للنابغة الجعدى فخالفه تلميذه أبو عبيدة . قال

---

(١) الطبقـات ٧٦ .

(٢) ١٨ .

ابن سلام (١) : « قلت ليونس : كيف تقرأ : « وجئتك من سـبأ بنبأ يقين » فقال : قال الجعدى ، وهو أفصح العرب :

من ســـبأ الحاضرين مأرب اذ يبنون من دون ســـيله العرما

— وهو على قراءة ابى عمرو ويونس — فجعـل يونس القصيدة للجعدى . وسمعت أبا الورد الكلابى سال عنها ابا عبيدة فقال : لأمية . ثم أتينا خلفا الاحمر فسألناه فقال : للنابغة وقد يقال لأمية » . ويبدو من العبارة الأخيرة أن خلفا يرجح قول أسـتاذه يونس .

وفطن يونس الى أن من أسباب الاختلاف فى نسبة بعض الأبيات ما تعوده الشعراء من التمثل فى قصائدهم ببعض أبيات السابقين عليهم دون أن يقصدوا الى سرقتها أو اخفاء أمرها على القارىء . قال ابن سلام (٢) : « أخبرنى خلف أنه سمع أهل البـــادية من بنى سعد يروون بيت النابغة للزبرقان بن بدر . فمن رواه للنابغة قـــال :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى مربض المستنفر الحامى

ومن رواه للزبرقان بن بدر قال :

أن الذئاب ترى من لا كلاب له وتحتمى مربض المستنفر الحامى

.. وسألت يونس عن البيت فقال : هو للنابغة ، أظن الزبرقان استزاده فى شعره كالمتمثل حين جاء موضعه لا مجتلبا له » .

واذا كانت بعض مرويات يونس أثارت خلافا كبيرا ، فان بعض أحكامه المتصلة بالرواية أثارت خلافات أخرى ، بل ضلل بعضها العلماء آمادا طويلة . فقد كان أحد الذين أطلقوا القول أن لبيد ابن ربيعة العـــامرى سكت عن الشـــعر بعـــد الاسلام . قال

---

(١) الطبقات ١٠٦ .

(٢) الطبقات ٤٨ .

ابن خلكان (١) : « قال يونس : لم يقل لبيد فى الاسلام سوى بيت واحد ، هو :

الحمد لله اذ لم يأتنى اجـــــلى
حتى لبست من الاســـلام سربالا »

ويدور حول هذا القول خلاف قديم وحديث . أما الخلاف القديم فيتناول البيت الوحيد الذى قاله لبيد فى الاسلام ، وهل هو ما رواه يونس أو غيره ؛ والبيت الذى رواه يونس : هل هو للبيد حقا أو لغيره . فقد خالف بعض الرواة يونس (٢) ، وقالوا ان البيت الذى قاله لبيد فى الاسلام هو :

ما عاتب المــرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وخالفه بعضهم الآخر فذكر أن البيت الأول ليس من نظم لبيد بل من نظم قردة بن نفاثة السلولى .

ويدور النقاش الحديث حول صحة قول يونس كله . فقد وجد المحدثون فى شعر لبيد ما شككهم فيه . وجدوا فيه ما قاله حين بلغ ٧٧ سنة :

قامت تشكى الى النفس مجهشــة
وقد حملتك سبعا بعد ســبعين
فان تزادى ثلاثا تبلغى أمــــلا
وفى الثــلاث وفــاء للثمانين

وما قاله حين بلغ ٩٠ سنة :

كأنى وقد جاوزت تســعين حجة
خلعت بهــا عن منكبى ردائيــا

---

(١) الوفيات ٢ : ٤١٧ .

(٢) انظر النقاش الطويل لقول يونس عند يحيى الجبورى فى كتابيه : لبيد ابن ربيعة العامرى ٤٩ ــ ٥٧ وشعر المخضرمين ٢٣٣ .

وما قاله حين بلغ ١١٠ سنة :

أليس فى مئة قد عاشها رجل
وفى تكامل عشر بعدها عمر ؟

على حين أنه قضى فى الجاهلية ٦٠ سنة من عمره فقط .
ووجدوا فيه ما قاله أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوه أن يدعو الله لانزال الغيث ، وما رثى به أخاه أربد بعد اسلامه .
ووجدوا فيه كثيرا من المعانى الاسلامية التى استقاها من القرآن والحديث والجو الاسلامى ، مثل قوله :

ان تقوى ربنا خير نفل   وباذن الله ريثى وعجلْ
أحمد الله فلا ند له   بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى   ناعم البال ومن شاء أضل

وقوله :

رأيت التقى والحمد خير تجارة
رباحا اذا ما المرء أصبح ثاقلا

وغيرهما ، مما يؤكد خطأ قول يونس .

كذلك أطلق يونس القول فى ثلاثة من الخلفاء الراشدين . قال أبو عبيدة (١) : زعم يونس أن عليا وعمر وعثمان رضى الله عنهم لم يقولوا شعرا الا أن يقولوا بيتا .

ويضعنا هذا القول أمام مشكلة عويصة ، اختلف فيها العلماء ، فكان منهم من أيد يونس تأييدا كاملا أو فى بعض قوله مثل حكمه على عثمان . وكان منهم من اختلف معه مثل ابن رشيق الذى قال (٢) : « فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم ما منهم الا من قال الشعر » ، وقال عن عمر (٣) : « كان من أنقد أهل زمانه للشعر

---

(١) مجاز القرآن ٢ : ١٥٩ (الحواشى) .
(٢) العمدة ٣٥ . وانظر كتاب الاسلام والشعر ليحيى الجبورى ٧٩ — ١٢٨ .
(٣) العمدة ٣٣ .

وأنفذهم فيه معرفة » ، وقال عن على (١) : « كان مجودا » . وروى لهم عـــدة قصائد وأبيات . وبين أيدى العلماء الآن ديوان كامل منسوب الى على . فاذا كان الشك يحوط قدرا ، يختلف فيه العلماء ، من قصائده ، فانه لا يرقى اليه جملة .

ووجدت ليونس بعض الأقوال التى تدل على أنه نظر فى الرواية والرواة ، ورصد بعض الظواهر التى ظهرت له .

أما الرواية فيبدو أنه كان مؤمنا بما قال أستاذه أبو عمـرو ابن العلاء عن كثرة الشعر العربى فى الجاهلية ، وكثرة ما ضاع منه فى أثناء انتقاله اليهم . فقد كان هو الذى نقل عن أبى عمرو قوله (٢) : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » . وكان هذا القول واحدا من الأقوال التى نشرت بين الناس تصوز سهولة نظم الشعر على العربى ، حتى كاد كل عربى يكون شاعرا عندهم .

ونقل أبو عبيدة عن أستاذه يونس أن أبا عمرو اعترف بانتحال أحد أبيات الشعر . قال أبو عبيدة (٣) : قال يونس : قال أبو عمرو ابن العلاء : أنا الذى زدت بيت الأعشى فى شعره ــ يعنى :

وأنكرتنى ومـــا كان الذى نكرت
من الحـــوادث الا الشيب والصلعا

فسار فى الناس وذهب ، فأتوب الى الله منـــه . وقال : لم أزد فى أشعار العرب غيره » .

ولكننى لا أقطع بصحة هذا القول . فقد روى تلميذ آخـــر ليونس ما يشكك فى صـــدوره عنه ، ويجعلنا نميل الى أن بعض

---

(١) العمدة ٣٤ .
(٢) ابن سلام : الطبقات ٢٣ . ابن جنى : الخصائص ١ : ٣٨٦ . ابن الأنبارى : النزهـــة ١٧ .
(٣) مجاز القرآن ١ : ٢٩٣ . ابن الأنبارى : شرحه للمفضليات ٥٦٥ .

تلاميذه وضع هذا القول على فمه انقاصا من قدر أبي عمرو ، ويزداد الشك بنا حين نذكر أن أبا عبيدة كان شعوبيا يتغنى « بمثالب العرب » ، ويحاول أن ينتقص من كبارهم . يستطرد ابن الأنباري بعد ايراده رواية أبي عبيدة فيقول : « وقال محمد بن سلام الجمحي : وحدثني جوان قال : قال يونس : قال أبو عمرو : وأنا ألذى قلت هذا البيت :

وأنكرتني . . .

قال : فلقيت يونس فسألته : من الذى يقول هذا البيت ؟ فقال : الأعشى . فقلت : ما قول أبي عمرو فيه ؟ فقال : قال أبو عمرو : وما بقي بعد الشيب والصلع ؟ كان ينبغي أن يتأتى لأن يقول الذى نكرت الشيب والصلع » . فيونس ينسب البيت صراحة للأعشى ، ولا يعرف قولا لأبي عمرو فيه غير نقد معناه .

وتصدى يونس بن حبيب لاثنين من رواة الشعر بالنقد والتكذيب . أما أولهما فبزرج بن محمد النحوى الكوفي ، الذى هاجمه هجوما مقنعا ، اذ قال عنه (١) : « ان لم يكن بزرج أروى الناس فهو أكذب الناس » . ويبدو أن كثيرا من العلماء يوافقون يونس في رأيه في الرجل . قال المازني (٢) : « روى بزرج بن محمد العروضي شعرا لامرىء القيس . فقال له جناد : عمن رويت هذا ؟ قال : عني ، وحسبك بي . فقال له جناد : من هذا أتيت يا غافل » .

وأما الثاني فالراوية الذى واجهته السهام من كل علماء البصرة ، وهو حمادالراوية . ولم يتقنع يونس في مهاجمته بل رماه في قسوة وعنف . قال ابن سلام (٣) : « سمعت يونس يقول : العجب

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٧٢ .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٧٣ .
(٣) الطبقات ٤١ .

لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر » وزاد غير ابن سلام (١) : « ويصحف » . وذكر أبو عبيدة أن يونس قال أيضا (٢) : « قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة ، وهو عليها ، فقال : ما أطرفتنى شيئا . فعاد اليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مديح أبى موسى . فقال : ويحك ! يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به ، وأنا أروى شعر الحطيئة ؟ ! ولكن دعها تذهب فى الناس » .

ولكن هذه الأقوال لقيت معارضة من كثيرين ، كشف عنها الدكتور ناصر الدين الأسد (٣) فى درسه لنظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى . فقد أبان أن القصيدة التى حكم عليها يونس بالانتحال رواها محمد بن حبيب عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى معا (٤) ، وأثبتها المدائنى البصرى وذكر (٥) « أن الحطيئة قال هذه القصيدة فى أبى موسى ، وأنها صحيحة ، قالها فيه وقد جمع جيشا للغزو » . وكشف عما فى القول الأول من دغل ، على ضوء التناقض بينه وبين أقوال العلماء الآخرين . فقد قيل ان المفضل الضبى قال عنه (٦) : « رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره .. فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد » وقيل انه (٧) كان « من أعلم الناس بأيام العرب

---

(١) أبو الطيب : المراتب ٧٣ . الجاحظ : رسائله ٢ : ٢٢٦ . السيوطى : المزهر ١ : ١٧٦ .

(٢) ابن سلام : الطبقات ٤١ . السيوطى : المزهر ١ : ١٧٦ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى ٤٣٨ — ٤٥٠ .

(٤) ديوان الحطيئة ٣٤ .

(٥) الأغانى ٢ : ١٧٦ .

(٦) الأغانى ٦ : ٨٩ .

(٧) ياقوت : معجم الأدباء ١٠ : ٢٥٨ .

وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها » . فأى هذه الاقوال يصدق على الرجل ؟ !

ونخلص من هذا بأن يونس بن حبيب لم يكن الرجل الذى يمكن ان يلقب بالراوية ، أريد لم يكن الرجل الذى جعل همه البحث عن الشعر والسعى وراءه وحفظه وروايته لذاته دون هدف وراءه . فلم تتعد روايته الأبيـــات التى تشهد لظواهر لغوية ونحوية ، والمقطوعات التى تتصل ببعض الأخبار التى عنى بها ، والقصائد التى اتصل بمن نظمها . ولم يتجاوز جهده الى رواية مجموعة من الأشعار أو ديوان لشاعر .

وقد أوقعه ذلك فى بعض المشاكل فى نسبة بعض الأبيات التى عزاها الى أناس فلم يتابعه الناس وآثروا قول غيره كالمفضـــل . وأوقعه فى بعض الأخطاء التى شاعت وضللت العلماء أمدا طويلا . وأوقعه أيضا فى بعض الخطأ فى الحكم على الرواة الذين نقـــد روايتهم دون أن يكون متبحرا مثلهم فيها أو نظيرا لهم فى العناية بها .

ويؤدى بنا ذلك الى عدم تصديق ياقوت (١) حين يطرى يونس فى حفظ الأشعار وروايتها فيعلن أنه كان : « حافظا لأشعارهم » . فان ما بين أيدينا من آثاره لا يكفى لأن نقرنه بمن نعرفه من رواة الشعر .

ونخلص أيضا الى انه يجب الاحتراس فيما ينقل عن الرجل ، اذ يبدو ان بعض تلاميذه نسبوا اليه مالم يقله لهوى فى نفوســهم الضعيفة الحاقدة .

---

(١) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥ .

الأخبـــار

يروى الرواة أن عمر بن الخطاب قال (١) : « الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه » ، وأن معاوية بن أبى سفيان قال (٢) : « الشعر ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها » .

اذن كان الشعر — فى خلد العرب — فى القرن الأول السجل الذى يحفظ معارف العرب ، واقوالهم ، وأعمالهم ؛ وأنه لم يقاربه سجل آخر فى هذا العمل ؛ وأن من سعى أن يعرف شيئا عنهم فعليه بشعرهم .

واذا كانت الأقوال التى عثرنا عليها من القرن الأول وتعرض هذه الصورة للشعر قليلة ومجملة ، فانها صارت فى القرن الثالث كثيرة ، ومفصلة ، بحيث لا تدع ريبا لمرتاب . قال الجاحظ (٣) : « فكل أمة تعتمد فى استبقاء مآثرها ، وتحصين مناقبها ، على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال . وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها » . وقال ابن قتيبة (٤) عن الشعر ان الله جعله لعلوم العرب مستودعا ، ولآدابها حافظا ، ولأنسابها مقيـــدا ، ولأخبارها ديوانا لا يرث على الدهر ولا يبيد على مر الزمان .

كانت صورة الشعر على هذه الهيئة فى القرن السابق علـى يونس ، والقرن اللاحق عليه ، صورة واحدة لا تزيدها الأيام الا ثباتا وبروزا وجلاء تفاصيل . فلا عجب أن يروى يونس عن أستاذه القول الذى رواه وأوردته فى الفصل السابق ، واكتفى منه هنا بجزئه

---

(١) ابن رشيق : العمدة ١ : ٢٧ .

(٢) أخبار عبيد بن شرية ٣٥٢ .

(٣) الحيوان ١ : ٧١ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ١٤ .

الأخير : ولو جاءكم (ما قالت العرب) وافرا لجاءكم علم وشعر كثير .

تؤدى بنا هذه الصورة الى النتيجة الطبيعية ـ والواقعة فى حياة العرب ـ أن من اشتغل برواية الشعر العربى ، فاهما لمعانيه ، مدركا لمراميه ، كان العارف بأخبار العرب أو ما اعتقد العرب أنه أخبارهم ؛ وأن من سعى وراء معرفة أخبار العرب كان واجبا عليه البحث عن شعرهم أولا . فالبحث عن الشعر العربى والسعى وراء أخبار العرب هدفان لكن طريقهما واحد . فاذا ما سلكه عالم واع ادرك الهدفين معا . ولست أشك فى وعى يونس ، فكان لذلك حافظا للشعر ، عارفا بالأخبار . بل لقد أثر اجتماع هذين الأمرين فى مزاجه وتذوقه للشعر ، فدفعاه الى الاعجاب بالشعر الذى يفى بهما . فوجد أمامه شعر الفرزدق لا يماثله شعر فى هذا الجانب . فالتزمه ، وتتبعه ، وأحبه ، رافعا شعاره (١) : « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس » .

وتدل الأخبار الباقية من رواية يونس أنه استقى بعضها من شيخه أبى عمرو ؛ وأنه استقى منه أخبارا متنوعة الطابع . فقد كان منها ما تؤمن العرب أنه تاريخها القديم . روى عنه مثلا قوله (٢) : « العرب كلها ولد اسماعيل الا حمير وبقايا جرهم » ، وما حكاه عن براقش التى يضرب بها المثل (٣) . وكان منها القصص الشعبية الجارية على الألسنة تفسيرا لمثل (٤) .

كذلك استقى يونس بعض أخباره من رجل آخر غير مشهور ، ولكنه كان على معرفة واسعة بالأحداث التى أخذها يونس عنه .

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ٣٢١ .
(٢) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١٠ .
(٣) الميدانى : مجمع الأمثال ١ : ٤٧٥ .
(٤) نفس المرجع ١ : ٤٩٧ .

قال أبو عبيدة فى بعض أخباره (١) : « فحدثنى سلام بن أبى خيرة قال : سمعته أيضا من أبى الخنساء كسيب العنبرى يحدث يونس النحوى — وكان علامة أهل البصرة » .

ويدل ما أخذه يونس عن أبى عمرو أنه كان له مشاركة فى العناية بهذين اللونين من الأخبار اللذين ذكرتهما . وفعلا نجد بين المرويات واحدا أو اثنين نستطيع أن نضعهما تحت النوع الأول ، غير أنه لم يصرح بمصدره . ولعله يروى الخبر التالى عن أبى عمرو أيضا ، اذ أنه متصل بالخبر الذى سقته آنفا . قال ابن سلام (٢) : « قال يونس بن حبيب : أول من تكلم بالعربية ، ونسى لسان أبيه ، اسماعيل ابن ابراهيم ، صلوات الله عليهما » . ويبدو أن الرجل كان قليل الاهتمام بمثل هذه الأخبار ، فلا تكثر عنده بل لا تتعدد .

أما النوع الثانى — أعنى القصص الشعبية — فأكثر عددا ، وتنوعا . ولعل السبب فى ذلك اتصال أكثرها بالأمثال التى ألف فيها يونس كتابا .

وأكثر الأخبار الباقية لدينا من القصص الشعبية ما دار حول العلاقات الفردية ، وخاصة بين الرجال والنساء : أزواجا كانوا أو آباء وأبناء ، أو أقارب . مثال ذلك ما قاله فى تفسير المثل القائل (جاورينا واخبرينا) قال (٣) : « كان رجلان يتعشقان امرأة . وكان أحدهما جميلا وسيما ، وكان الآخر دميما تقتحمه العين . فكان الجميل منهما يقول : « عاشرينا وانظرى الينا » . وكان الدميم يقول : « جاورينا واخبرينا » . فكانت تدنى الجميل . فقالت : « لأختبرنهما » . فقالت لكل واحد منهما أن ينحر جزورا . فأتتهما متنكرة . فبدأت بالجميل فوجدته عند القدر يلحس الدسم ويأكل

---

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق ٧٣٤ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ٩٠ . السيوطى : المزهر ١ : ١٧٤ .

(٣) الميدانى : مجمع الأمثال ١ : ١٦٩ .

الشحم ، ويقـــول : « احتفظوا كل بيضاء ليه » يعنى الشحم . فاستطعمته فأمر لها بثيل الجزور فوضع فى قصعتها . ثم أتت الدميم ، فاذا هو يقسم لحم الجزور ويعطى كل من ســـأله . فسألته ، فأمر لها بأطايب الجزور فوضع فى قصعتها . فرفعت الذى أعطاها كل واحد منهما على حدة . فلما أصبحا غدوا اليها ، فوضعت بين يدى كل واحد منهما ما أعطاها . وأقصت الجميـل وقربت الدميم ويقال : انها تزوجته . يضرب فى القبيح المنظر الجميل المخبر » .

وكان من القصص الشعبية التى اتسع انتشارها بين العرب وأقبلوا عليها اقبالا لا نظير له ما دار حول العشاق ، والعذريين منهم خاصة . وكان ليونس أدنى مشاركة فيها ، فقد نسبت اليه رواية احدى هذه القصص . قال السراج (١) : « عن يونس قال : انصرفت من الحج فمررت بماوية ، وكان لى فيها صديق من بنى عامر ابن صعصعة ، فصرت اليه مسلما فأنزلنى . فبينا أنا عنده ، ونحن قاعدان بفنائه ، اذا نساء مستبشرات وهن يقلن : « تكلم ! تكلم ! » فقلت : « ما هذا ؟ » فقالوا : « فتى منا كان يعشق ابنة عم له ، فزوجت وحملت الى ناحية الحجاز . فانه لعلى فراشه منذ حول ما تكلم ولا أكل الا أن يؤتى بما يأكله ويشربه . فقلت : « أحب أن أراه » . فقام وقمت معه . فمشينا غير بعيد واذا بفتى مضطجع بفناء بيت من تلك البيوت لم يبق منه الا خيال . فأكب عليه الشيخ يسأله وأمه واقفة . فقالت : « يا مالك ، هـــذا عمك أبو فلان يعودك » . ففتح عينيه وأنشأ يقول :

ليبكنى اليـــــوم أهل الود والشفق
لم يبق من مهجتى الا شـــــفا رمق
اليوم آخر عهـدى بالحيـاة فقـد
أطلقت من ربقة الأحــــــزان والقلق

---

(١) مصارع العشاق ١ : ٤٠ .

ثم تنفس الصعداء فاذا هو ميت . فقام الشيخ وقمت . فانصرفت الى خبائه ، فاذا جارية بضة تبكى وتتفجع . فقال الشيخ : « ما يبكيك ؟ » فأنشأت تقول :

الا أبكى لصب شف مهجته
طول السقام وأضنى جسمه الكمد

يا ليت من خلف القلب الهيوم به
عندى فأشكو اليه بعض ما أجد

أنشر تربك أسرى لى النسيم به
أم أنت حيث يناط السحر والكبد

ثم انثنت على كبدها وشهقت فاذا هى ميتة . قال يونس : فقمت من عند الشيخ وأنا وقيذ » .

والخبر يسير على النمط الشائع فى هذه القصص ، ولا يخالفه ادنى خلاف .

وشارك يونس فى نوع آخر من القصص الشعبية كان له رواجه فى ذلك العصر ، أعنى قصص الحيوان ، أو القصص التى تتخذ من الحيوان أبطالا لها ؛ وهى كثيرة وخاصة فى الأمثال . روى الميدانى (١) فى تفسير المثل القائل : (لا أحب تخديش وجه الصاحب) : « قال يونس : تزعم العرب أن الثعلب رأى حجرا أبيض بين لصبين فأراد أن يغتال به الأسد . فأتاه ذات يوم فقال : يا أبا الحارث ، الغنيمة الباردة : شحمة رأيتها بين لصبين ، فكرهت أن أدنو منها ، وأحببت أن تتولى ذلك أنت ، فهلم لأريكهما : فانطلق به حتى قام به عليه . فقال : دونك يا أبا الحارث . فذهب الأسد ليدخل فضاق به المكان . فقال له الثعلب : اردس برأسك . اى ادفع برأسك . فأقبل الأسد

---

(١) مجمع الأمثال ٢ : ١٩١ .

يردس براسه حتى نشب فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر . ثم أقبل الثعلب يخوره ، أى يخدش خورانه من قبل دبره . فقال الأسد : ما تصنع يا ثعالة . قال : أريد لأستنقذك . قال : فمن قبل الرأس اذن . فقال الثعلب : لا أحب تخديش وجه الصاحب . يضرب للرجل يريك من نفسه النصيحة ثم يغدر » .

ولا نستطيع أن ندعى ليونس منهجا ينفرد به فى روايته لهذه القصص الشعبية الدائرة على الألسنة ، ولا طريقة ذات خصائص متميزة عن غيره . فمثله فيها مثل كل من رواها ، يقتصر على الرواية دون النقد ، ولا يحاول عليها تعليقا بالتصديق أو التكذيب .

ومهما يكن من شيء فما بقى لدينا منها قليل ، لا يمكن الاعتماد عليه فى استخلاص شيء ذى بال عن يونس . ويبدو لى أن هـذه القلة ناتجة عن عدم اعطاء يونس هذه الأخبار ما أعطاه غيرها من اهتمام . فاننا اذا قارنا بين ما وصل الينا منها وما وصل من أخبار الشعراء وجدنا أخبار الشعراء أضعاف النوع الأول من القصص . ولنا الحق أن نقول ان أخبار الشعراء كانت الاهتمام الأول ليونس ، وأن غيرها انما كان أمرا عارضا . لا أستثنى من ذلك غير ما تضمنته الأمثال ، اذ اضطر الى العناية به فى كتابه .

وعندما ننظر فيما بقى بين أيدينا من أخبار الشعراء نفاجأ بظاهرة لافتة للنظر ، وهى أن شيئا منها لا يعود الى الوراء البعيد ، ولا ينظر الى الحاضر القريب . فلم أعثر على خبر رواه يونس عن شاعر عباسى . وقد يكون هذا شيئا طبيعيا ، فان النحويين من أمثاله عدوا هؤلاء الشعراء مولدين ، ومنعوا الاستشهاد بأقوالهم ، ولم يعترفوا بهم . والاستثناء الوحيد خبر عن قرشى لم يذكر اسمه ، وليس فيه ما يجعله جديرا بالرواية . ولعل يونس فعل ذلك تملحا . قال ابن سلام (١) : « حدثنا يونس قال : كنا على باب

---

(١) السيرافى : اخبار النحويين البصريين ٢٨ .

ابن عمير ، فمرت بنا امرأة يدفع بعضها بعضا كأنها خائفة . فما لبثنا أن أقبل فتى من قريش عليه قميص قوهى ورداء . فلما رآنا ارتدع ، فقلنا : ها هنا طلبتك . فتبعها وقال :

اذا سلكت قصد السبيل سلكته
وان هى عاجت عجت حيث تعوج » .

ولم أعثر — للعجب — على واحد يرويه يونس من أخبار الجاهليين ، وهم أول من يستشهد بهم فى النحو .

وانما أقدم من حكى أخباره من الشعراء : المخضرمون مثل الحطيئة وعبد الله بن همام السلولى وأبى الأسود الدؤلى . قال ابن سلام : « أخبرنى يونس النحوى قال : خرج الحطيئة مع ابنته مليكة ، وامرأته أمامة ، على ذود له ثلاث ، فنزل منزلا وسرح ذوده . فلما قام للرواح فقد احداهن ، فقال (١) :

أذئب القفر أم ذئب أنيس
أصاب البكر أم حدث الليالى

ونحن ثلاثة ، وثلاث ذود ،
لقد جار الزمان على عيالى »

ثم يستأثر الأمويون بأغلبية الأخبار . وأشعر أنى أتجوز فى هذا القول ، وأوسع النطاق أكثر مما يجب . فما وجدت الا خبرا واحدا عن أكثر الشعراء الذين تحدث عنهم ، مثل كثير عزة ، وأبى دؤاد الرؤاسى . قال ابن سلام : « حدثنى يونس بن حبيب قال : وقعت حرب بين عقيل بن كعب ونمير بن عامر ، فلم يقم لهم بنو عقيل ، وجعلت نمير تسرف عليهم . فلما رأت ذلك بنو كعب وبنو كلاب وما تلقى عقيل من نمير ، أجمعوا على قتل بنى نمير . فارتحلت نمير ليلحقوا ببنى سعد بن زيد مناة ، فلحقتهم كلاب

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٩٦ .

؞ردتهم ، فتحملوا ما كان لهم من دم في بنى كعب ، ووهبوا لهم
ـا كان منهم . فقال أبو دؤاد الرؤاسي في ذلك (١) :

؞فعنا ، والأحبـــة من دفعنا	وكنا ملجأ لبنى نمـــــير
حـــوينا حجـــرنا لهم فحلوا	الينا بعد تظعان وســـير
وكان الراس يوم قراص منـا	ومنا الراس يوم أبى عمـــير
فان وهت العصـا وأهنتموهم	فلا تستبدلوا أخيـــال طير
صـــديق كلما كنتم بشـــر	وأعـــداء اذا كنتم بخير »

وكانت أغلب الأخبار على هذا النمط من القصر ، فلا يطول وتتعدد الأشعار في غير ما رواه عن الأخطل ، وابن مفرغ الحميرى ، ويزيد بن عبد الملك . فقد روى (٢) : « ان حبـــابة جارية يزيد ابن عبد الملك غنت يوما :

بين التراقى واللهـــاة حرارة ما تطمئن وما تســـوغ فتبرد

فأهوى ليطير فقالت : يا أمير المؤمنين ، ان لنا فيك حاجـــة . فمرضت وثقلت فقال : كيف أنت يا حبابة ؟ فلم تجبـه . فبكى وقال :

لئن لم تسل عنك النفس أو يذهل الهوى
فباليأس يســـلو القلب لا بالتجـــلد

وسمع جارية لها تتمثل :

كفى حـــزنا بالهائم الصب أن يرى
منازل من يهوى معطـــلة قفـــرا

فكان يتمثل بهذا .. » .

كل هذا القول ينطبق على الشعراء الأمويين غير واحد ، ولذلك

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٥٩٠ .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٤٦٥ (أحداث سنة ١٠٥) .

صرحت اني اتجوز حين أعلن ان هؤلاء الشعراء استأثروا بأغلب أشعاره . فالحق أن الذى استأثر بها هو ذلك الشاعر الواحد ، وهو الشاعر الذى حفظ شعره أخبار الناس ، أعنى الفرزدق .

فالأخبار الباقية تدل على أنه أولاه من العناية مالم يول لغيره من الشعراء ، فروى عنه من الأخبار قدر ما روى عن بقية الشعراء الأمويين . وكشف عن جوانب متعددة من حياة الرجل ، تتصل بالأغراض المختلفة من شعره ، من غزل وفخر وهجاء ونقائض . قال ابن سلام (١) : « قال يونس : كان للفرزدق غلامان أحدهما اسمه وقاع ، والآخر نقطة . ولوقاع يقول الفرزدق :

تغلغل وقاع اليهـــــا فأصبحت
تخوض خداريا من الليـــل أخضرا
لطيف ، اذا ما انغل أدرك ما ابتغى
اذا هــو للظبى الغــرير تقترا

وقال أيضا :

فأبلغهن وحى القـــول عنى	وأدخل رأســه تحت القرام
أسـيد ذو خريطة نهــارا	من المتلقطى قـــرد القمام
فقلن له : نواعـــدك الثريا	وذاك اليه مجتمـع الزحــام
ثلاث واثنتــان فهن خمس	وسادســة تميل الى الشمام
فبتن بجانبى مصرعـــات	وبت أفض أغلاق الختــام »

والتفت بطبيعة الحال الى ما كان بينه وبين جرير من تناقض ، فروى خبرا يكشف عن خلق كل منهما ، قال (٢) : « كان الفرزدق يتضور ويجزع اذا أنشد لجرير ، وكان جرير أصبرهما » . وروى خبرا آخر يبين حال الناس بينهما ، قال (٣) : « ما شهدت مشهدا

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٣٧ . المرزبانى : الموشح ١١٤ .
(٢) ابن سلام ٣١٧ .
(٣) ابن سلام ٢٥١ . الأغانى ٨ : ٥٠ .

قط ذكر فيه جرير والفرزدق فأجمع اهـــل ذلك المجلس على أحدهما » .

وروى بعض الطرائف التى وقعت بين الفرزدق وبعض الشعراء مثل الحوار الذى دار بينه وبين الأحوص الأنصارى (١) ، وما كان بينه وبين نصيب فى مجلس سليمان بن عبد الملك وحكيته فى الفصل السابق ، كما ذكرت آنفا أخبار الشعراء الذين تعرض لهم يونس لأنهم تعرضوا للفرزدق مثل اللعين المنقرى وجرير بن خرقاء العجلى .

ويهجس بخاطرى ظن أن يونس تحدث عن أبى النجم ، اذ كان خبره له اتصال ما بأخبار الفرزدق . قال (٢) : « اجتمع الشعراء عند سليمان بن عبد الملك فأمرهم أن يقول كل رجل منهم قصيدة يذكر فيها مآثر قومه ولا يكذب . ثم جعل لمن برز منهم جارية مولدة . فانشدوا ، وأنشد أبو النجم حتى أتى على قوله :

عدوا كمن ربع الجيوش لصلبه عشرون ، وهو يعد فى الأحيـاء

قال : أشهد ــ ان كنت صادقا ــ انك لصاحب الجـارية . قال أبو النجم : سل الملأ عن ذلك يا أمير المؤمنين . قال الفرزدق : أما أنا فأعرف منهم ستة عشر ، ومن ولد ولده أربعة ، كلهم قد ربع . فقال سليمان : ولد ولده هم ولده ، ادفع اليه الجارية » .

وطبيعى بعد أن قال عن الفرزدق ما قال ، وحكى عنه ما حكى ، أن يعنى بما أشار اليه فى شعره من أخبـــار . ولما كنا نعلم أن النقائض خاصة مليئة بالاشارات التاريخية التى تشيد بمفاخر قبيلة الشاعر ومآثرها ، وتعيب قبيلة خصمها بما كان فيها من مثالب أو ما قاسته فى حروبها من هزائم ؛ كان غير غريب علينا أن نعتقد أن المجــال الذى عنى يونس بأخباره فسيح ، لا يغفل جاهلية

---

(١) ابن سلام ٣١٢ .

(٢) ابن سلام ٥٧٨ .

ولا اسلاما . ولكن الحق أننا لا نملك دليلا على شيء من هذا .
فكل ما وجدته منسوبا اليه أخبـــار تتعلق بما أراد أن يضطلع به
عبيد الله بن زياد فى البصرة بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية ،
وعدم قيام خليفة يبايعه الناس ، واضطراب الأمـــر فى الأقطار
الاسلامية . وكان ذلك منه بمناسبة حديثه عن قول الفرزدق
خاصا بهذه الأحداث :

ومنا الذى أعطى يديه رهينــة ... لغارى معد يوم ضرب الجماجم
كفى كل أم ما تخاف على ابنها ... وهن قيـــام رافعات المعاصم
عشية ســـال المربدان كلاهما ... عجاجة موت بالسيوف الصوارم

قال أبو عبيدة (١) : « مبدأ حديثه أن يونس بن حبيب النحوى
حدثنى قال : لما قتل عبيد الله بن زياد الحسين بن على رضهما
وبنى أبيه بعث برؤوسهم الى يزيد . فسر بقتلهم أولا وحسنت
بذلك منزلة عبيد الله عنده . قال : فلم يلبث الا قليلا حتى ندم على
قتل الحسين رضه فكان يقول : وما كان على لو احتملت للحسين
الأذى ، فأنزلته معى فى دارى ، وحكمته فيما يريد ، وان كان فى ذلك
وكف ووهن فى سلطانى ، حفظا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
ورعاية لحقه وقرابته . لعن الله ابن مرجانة ، فانه أخرجه واضطره ،
وقد كان سأله أن يخلى سبيله ويرجع من حيث أقبل أو يأتينى
ويضع يده فى يدى أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه
الله تعالى ، فأبى ذلك ورده عليه وقتله ، فبغضنى بقتله الى المسلمين
وزرع فى قلوبهم العداوة ، فأبغضنى له البر والفاجر بما استعظم
الناس من اقتلى حسينا . مالى ولابن مرجانة ، لعنه الله وغضب
عليه ! ثم ان عبيد الله بعث مولى له يقال له أيوب بن حمران الى
الشام ليأتيه بخبر يزيد . قال : فركب عبيد الله ذات يوم حتى
اذا كان فى رحبة القصابين اذا هو بأيوب بن حمران قد قدم فلحقه

---

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق ٧٢١ . وانظر ٧٢٤ ، ٧٢٩ ، ٧٣٤ .

فأسر اليه موت يزيد بن معاوية . فرجع عبيد الله من مسيره ذلك . فأتى منزله وأمر عبد الله بن حصن ـ أحد بنى ثعلبة بن يربوع فنادى : الصلاة جامعة ... » .

نخلص من هذا بأن يونس بن حبيب عنى بقسمين متميزين من الأخبار . يتألف القسم الأول من القصص الشعبية التى رددتها الألسنة فى الجاهلية والاسلام على اختلاف الوانها ، من قصص العلاقات بين الأفراد ، والعلاقات بين القبائل ، وقصص العشاق العذريين ، وقصص الحيوان المتخيلة . وكان الذى دعاه الى العناية بهذه الألوان من القصص الشعبية أو أغلبها ، كتاب الأمثال الذى ألفه ، لأن الأمثال تقوم على هذا القسم من القصص ، ولم يختلف نهج يونس عن نهج نظرائه الذين عنوا بهذا القسم وجمعوا أخباره ودونوها دون نقد ولا تمحيص .

ويتألف القسم الثانى من أخبار الشعراء . وقد أهمل يونس الجاهليين والعباسيين منهم فلم أجد فيما بين يدى من أخبار شيئا عنهم . واقتصر على المخضرمين والاسلاميين أو الأمويين ، فتحدث عن جماعة منهم ، غير أن القسط الأكبر من حديثه كان عن الفرزدق ومن اتصل بهم وما أشار اليه فى شعره من أحداث . فلا عجب أن ينعته الناعتون بأنه كان فرزدقيا (١) . ويدل هذا على صدق قول ابن سلام حين وصف يونس فقال : « أخبارى نسابة وخاصة أخبار شعراء بنى أمية » . فكل ما بين أيدينا يؤكد الشطر الثانى من هذا القول .

أما وصفه « بالنسابة » فلم أجد فى الأخبار التى عثرت عليها ما يدعمه غير حديثه عن ابن مفرغ الحميرى ، فقد أورد نسبه أو قطعة منه . ولم أجد ما يشبه ذلك فيما بقى من حديثه عن سائر الشعراء . وكان لنا الحق فى الشك فى هذا الوصف ، لولا أن

---

(١) أبو الفرج : الاغانى ٨ : ٥ .

يونس — فيما يبدو — كان مشهورا بمعرفة الأنساب وما تحتوى عليه من مفاخر ومثالب ، حتى ضرب به المثل . قال الجاحظ (١) : « وصف الهذيل المازنى مثنى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام ، فقال : والله لهو انسب من سعيد بن المسيب وقتادة بن دعامة للناس ، بل هو أنسب من أبى بكر الصديق رضى الله عنه . لقد دخلت على رجل أعرف بالأمهات المنجبات من سحيم بن حفص ، وأعرف بما دخلها من الهجنة والاقراف من يونس بن حبيب » . اذن فلا شك أنه كان نسابة حقا ، وأن لم يتبين ذلك فيما بقى من مروياته .

وكشف لنا النظر فى هذه المرويات أنه أخذ قسطا منها من أستاذه أبى عمرو ، والقسط الآخر من العارفين بالأخبار ، المعاصرين لها ، وتحرى منهم الذين اشتهروا بسعة المعرفة والثقة . وعنى فى هذه الأخبار بما اتصل بحياة الشعراء ، وبما أشاروا اليه فى شعرهم . وحاول الاحاطة الشاملة فى رواية الأخبار التى تضمنها الشعر ، فعنى بالدقائق والتفاصيل ، وصورها على اتساع مجالها دون أن يقتصر على الجزء الذى يوضح الشعر منها .

النقد

برز لنا يونس بن حبيب واحدا من علماء العربية ، الذين عاشوا فى القرن الثانى ، وشارك فيما أخذوا فيه . فكان له حظ من رواية الشعر ، وأكثر من حظ فى العناية بأخبار أصحابه والأخبار الواردة فيه ، وخاصة من العصر الأموى .

وقد احتفل علماء العربية فى هذا العهد بنقد الشعر احتفالا كبيرا ، بل يمكن القول بأن هذا الاحتفال تجاوز علماء العربية الى غيرهم من عامة الناس ، بسبب ما اشتبك فيه جرير والفرزدق

(١) الحيوان ٣ : ٢١٠ .

والأخطل. وجماعة كبيرة من الشعراء من تناقض ، وترقب الناس لما يخرجه كل منهم ردا على خصمه ، ثم التنازع في غلبة كل منهم على الآخر في النقيضتين آنا ، وفي النقائض كلها آنا أخرى ؛ وفي فن الهجاء آونة ، وفي الشعر بجميع فنونه أخرى . حتى قال من أرخ للنقد العربي (١) : « غير أن الحال تغيرت كثيرا في أواخر القرن الأول ، تغيرت في أخريات أيام فحول الاسلاميين . فارتقى النقد الأدبي ارتقاء محمودا ، وكثر الخوض فيه ، وتعمق الناس في فهم الأدب ، ووازنوا بين شعر وشعر ، وبين شاعر وآخر ، حتى لنستطيع أن نقول : ان عهد النقد الصحيح يبتدىء من ذلك الوقت ، وأن كل ما سبق لم يكن غير نواة له أو محاولات فيه » .

ولم يكن من الطبيعي أن يعيش يونس في هذه المعركة الشعرية وأعقابها ، وفي هذه المعركة النقدية ، ولا يصاب بحماها ، وخاصة أن بعض شيوخه كان لهم نصيبهم فيها .

واذ كان الأمر كذلك ، أحب أن أستهل بما اقتصر فيه يونس على الرواية ، وحكاية مواقف شيوخه ، ومن التقى بهم من الناس . وحين نفعل ذلك نجد يونس يروى عن أربع فئات من الناس : الشعراء ، وكبار القوم ، والشيوخ ، وجماهير الناس .

فكان أكثر من روى عنهم الشعراء ، من أمثـــال الفرزدق ، ورؤبة ، وذى الرمة . وقد أوردت سابقا الخبر الذى أعجب فيه الفرزدق بشعر لنصيب حتى وصـــفه بأنه أشعر بنى جلدته . وأما رؤبة فقد اتهم جريرا بالكذب أو الخطأ في واحد من معانيه . قال أبو عبيدة (٢) : « قال رؤبة ـ وأنشده يونس بيت جرير :

انى اذا الشاعر المغرور حربنى ... جار لقبر عـلى مران مرموس

---

(١) طه أحمد ابراهيم : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٣٣ .

(٢) الموشح ١١٩ .

فقال رؤبة : كذب والله ، ما تميم بمران انما هو بذات عرق ، وقبر معد بمران » .

وروى نقدين عن اثنين من خلفاء بنى أمية ، وهما سليمان ابن عبد الملك ، الذى شارك الفرزدق فى الاعجاب بأبيات نصيب ؛ وعبد الملك بن مروان الذى فضل أبياتا للأعشى على أبيات لكثير . قال ابن سلام (١) : « قال يونس : أنشد كثير عبد الملك مدحته التى يقول فيها :

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة
أجاد المسـدى سردها وأذالهـا

يؤود ضعيف القـوم حمل قتيرها
ويستضلع القـوم الأشم احتمالها

فقال له عبد الملك : قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحب الى من قولك اذ تقول » . أراد بقول الأعشى :

واذا تجىء كتيبة ملمومـة
شـهباء يخشى الذائدون نهالهـا

كنت المقـدم ، غير لابس جنـة
بالسيف تضرب معلما أبطالهـا

وآثر برواية النقد شيخا واحدا هو ابن أبى اسحاق ، فحكى مواقفه من الفرزدق ، والمعركة التى احتدمت بينهما بسبب ما ارتكب الشاعر فى لغته . وروى عنه رأيا كان منكرا له . قال ابن سلام (٢) : « أخبرنى يونس كالمتعجب أن ابن أبى اسحاق كان يقول : اشعر أهل الجاهلية مرقش ، واشعر أهل الاسلام كثير . ولم يقبل هذا القول ولم يشع » .

---

(١) الموشح ١٤٥ . وانظر تكملة الخبر ورد كثير عند ابن سلام ٤٥٨ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ٤٤ ، ٤٥٧ .

أما الجماهير التى أورد آراءها فقد قال ابن سلام بصددها (١) :
« اخبرنى يونس بن حبيب : أن علمـــاء البصرة كانوا يقـــدمون امرأ القيس بن حجر ، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن أهل الحجاز يقدمون زهيرا » . وأضاف السيوطى (٢) : « وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحدا ، كما أن اهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحـــدا » .

وكل هذه الأقوال غير ذات أهمية كبيرة للبحث عن يونس ، لأنها لا تكشف عن موقف للرجل ، ولا تبين رأيا خاصا له ، غـير استنكاره لما قال أستاذه ابن أبى اسحاق . وأن يونس لتروى عنه اقوال نقدية كثيرة تغنينا عن الالتفات الى مروياته .

ونستطيع أن نجعل هذه الأقوال أصنافا . نبدأ منها بأحكامه العامة على فن الشعر . فقد روى سليمان بن اسحاق الزبالى عنه أنه قال (٣) : « الشعر كالسراء والشجاعة والجمال لا ينتهى منه الى غاية » . ويدل هذا القول على أن الرجل كان يرى أن هناك أمورا معنوية ، وتقديرية ، يختلف النظر فيها ، ولا يستطيع أن يحكم أنها انتهت الى غاية لها لا تتجاوزها بل لا يستطيع أن يقارن بين المفترفين منها : أيهم أعظم حظا منها ، وخاصة عندما يتقارب نصيبهم . ومن هنا كان عسيرا أن نصل الى رأى مجمع عليه أن فلانا أشعر الشعراء . ولا أتفق مع الصديق الدكتور محمـــد زغلول سلام (٤) أن هذا القول بصدد صلة الشعر بالأحاسيس الانسانية .

ونتنقل من فن الشعر عامة الى أغراضه ، فقد كان ليونس نظرات فى بعضها . فقـــد حاول أن يعرف المدح والتأبين ويفرق

---

(١) نفس المرجع ٤٤ .
(٢) المزهر ٢ : ٤٨٢ .
(٣) ابن سلام ٥٥ .
(٤) تاريخ النقد العربى ٣١ .

بينهما ، فقال (١) : « التأبين مدح الميت والثناء عليه . قال رؤبة : (فامدح بلالا غير ما مؤبن) والمدح للميت » . ولست أدرى أيفرق يونس بين التأبين والرثاء أم لا . ولكن ما قاله هنا عده النقاد التعريف الصحيح ، ولم يفرقوا بينه وبين الرثاء . فشاع (٢) بينهم ان الرثاء ثناء على الميت ، وأن لا فرق بينه وبين المدح غير موت المقصود بالأول وحياة المقصود بالثاني . وفقدنا عندهم الشعور بالأسى واللوعة من أجل الفقيد ، الى أن تنبه اليه ابن رشيق فأبرزه وان كان قد قصره على طبقة خاصة من الناس ، قال (٣) : « سبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع ، بين الحسرة ، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام ، ان كان الميت ملكا او رئيسا كبيرا » . ولحسن الحظ أن الشعراء لم يأبهوا لهذا الكلام وساروا فى طريقهم مظهرين ما شاءوا من عواطف ، فمنحونا مجموعة من روائع الرثاء .

ونظر فى الهجاء ، ومسالك الشعراء فيه ، واستجابة الناس لكل واحد منها ، فقال (٤) : « أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل ، وهو الاقذاع عندهم » . وقد أخذ يونس هذا القول مما جرى بين عمر ابن الخطاب والحطيئة . قال ابن رشيق (٥) : « لما اطلق عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الحطيئة من حبسه اياه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر ، قال له : اياك والهجاء المقذع . قال : وما المقذع يا أمير المؤمنين ؟ قال : المقذع ان تقول : هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ، وتبنى شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم . قال : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر . . » .

ولم يتفق كثير من النقاد مع يونس فى كون هذا النوع من الهجاء

---

(١) ابن سلام ١٧٤ .
(٢) الدكتور أحمد أحمد بدوى : اسس النقد الادبى عند العرب ٢٢٤ .
(٣) العمدة ٢ : ١٧٤ .
(٤) العمدة ٢ : ١٧٠ .
(٥) العمدة ٢ : ١٧٠ .

أشدها . فالأقوال متعددة في هذا الصدد تكشف عن اختلاف كبير ، لعله يكشف عن مزاج القائل ، ومزاج العصر الذي كان يعيش . فعلى حين يقول أبو عمرو بن العلاء (١) : « خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها » ويؤيده خلف الأحمر ويقول (٢) : « أشـــد الهجاء أعفه وأصدقه » ، يقول القاضي الجرجاني (٣) : « فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه ، وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس . فأما القذف والافحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن وتصحيح النظم » ، ويرى قدامة بن جعفر (٤) أن الهجاء الجيد يكون بسلب الفضائل النفسية .

ونظر في تحسر الشعراء على الشباب المولى ، واستذكر ما يعرف من شعر ، فوجد أنه لا يفي بحق هذا العزيز الذاهب . قال (٥) : « ما بكت العرب على شيء بكاءها على الشباب ، وما بلغت به كنه ما يستحق » . وقد أخذ الصولي (٦) عنه هذا الحكم ، وأفاد منه في تفضيل مقطوعة لمنصور النمري .

والتفت الى العيوب العروضية التي تلحق الشعر ، فقال (٧) : « عيوب الشعر أربعة : الزحاف والسناد والايطاء والاكفاء — وهو الاقواء » .

وقد اتفق يونس في تعريفه هذا للاكفاء مع (٨) « جلة العلماء

(١) العمدة ٢ : ١٧٠ .
(٢) العمدة ٢ : ١٧٠ .
(٣) الوساطة ٢٤ .
(٤) نقد الشعر ٣٠ .
(٥) المبرد : الفاضل ٧٢ . الزبيدي ٤٩ .
(٦) أخبار أبي تمام ٢٧ .
(٧) ابن سلام ٥٦ .
(٨) العمدة ١ : ١٦٦ .

كأبى عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، وأحمد بن يحيى ثعلب » ، غير أن المفضل الضبى والمبرد خالفا ، وجعلا الاكفاء اختلاف الحروف فى الروى .

ونبه الى جماعة من كبار الشعراء وقعوا فيه ولم يفطنوا الى تبرئة شعرهم منه . قال (١) : « وقد ركب بعض الفحول الاقواء فى مواضع مثل سحيم بن وثيل الرياحى فى قوله :

عذلت البزل ان هى خاطرتنى   فما بالى وبال ابن اللبـــون
وماذا يدرى الشـــعراء منى   وقـــد جاوزت رأس الأربعين

فنون الأربعين مفتوحة ونون اللبون مكسورة ولكنه كأنه وقف القوافى فلم يحركها وقال جرير :

عرين من عرينـــة ليس منـــا   برئت الى عرينـــة من عرين
عرفنا جعفرا وبنى عبيـــــد   وانكرنا زعانف آخـــرين »

وهون يونس من شأن الزحاف ، دون بقية العيوب العروضية ، فقال (٢) : « أهون عيوب الشعر الزحاف ، وهو أن ينقص الجزء عن سائر الأجزاء » . فاتفق فى هذا مع الخليل ، الذى ذهب الى أبعد مما ذهب اليه يونس ، فاستحسن القليل منه فى الشعر (٣) .

وعثرت على قولين يدلان على أن يونس تحدث فى أشياء تندرج تحت ما عرفه النقاد بالسرقات الشعرية . فاستبعد فى قول الزبرقان الذى ذكرته آنفا السرقة ، ورأى أنها تضمين لبيت على هيئة المثل السائر .

ويبدو أن يونس اعتمد فى انكار أن يكون هذا الأمر من السرقة على أستاذه أبى عمرو بن العلاء (٤) الذى لم ير ذلك عيبا .

---

(١) قدامة : نقد الشعر ١٠٩ .
(٢) الموشح ٨٣ . قدامة : نقد الشعر ١٠٧ .
(٣) ابن سلام ٥٨ .
(٤) العمدة ٢ : ٢٨٣ .

ونبه فى القول الثانى الى أحد المعانى التى استوحاها جرير من القرآن . فقد علق على بيته :

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تشد عليكم ورجالا

فقال (١) : « أخذ هذا المعنى من قول الله : (يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو) » .

وعند يونس كثير من الأحكام العامة . أطلق بعضها على قبائل ، مثل قوله (٢) : « ليس فى بنى أسد الا خطيب أو شاعر أو قائف أو زاجر أو كاهن أو فارس . وقال : وليس فى هذيل الا شاعر أو رام أو شديد العدو » . وأطلق بعضها الآخر على شعراء ، أعجبه بشعرهم أو استهجنه جملة . فقد كان يعجب بشعر النابغة الجعدى ، ورجز رؤبة ، ويثنى عليهما . روى الجاحظ عنه أنه قال (٣) : « انما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدى ورؤبة » . واستنبط من ذلك أنه كان يميل الى الشعر غير المصنوع المجود ، ويفضله على الشعر الذى يتروى فيه صاحبه ويتأنق . وروى ابن سلام أنه كان معجبا أيضا بشعر ابن قيس الرقيات وعبد الله بن الزبعرى من القرشيين ، قال (٤) : « كان عبيد الله أشد قريش أسر شعر فى الاسلام بعد ابن الزبعرى » . وكان الأخطل من الشعراء الذين أعجب بعذوبة شعرهم ، قال (٥) : « ما أكثر ماء شعر الأخطل » . وأعتقد أنى فى غنى عن الاشارة الى أعجابه بشعر الفرزدق لما احتوى عليه من أخبار الناس .

وكان البعيث المجاشعى فى مرحلة متوسطة ، اذ أساء فى فن

---

(١) الجاحظ : الحيوان ٥ : ٢٤٠ .
(٢) الجاحظ : البيان ١ : ١٧٤ .
(٣) البيان ٢ : ١٣ ، ٣ : ١١ ، ٤ : ٨٤ .
(٤) طبقات فحول الشعراء ٥٣٠ .
(٥) الصولى : أخبار أبى تمام ٣٣ .

وأحسن فى آخر ، قال عنه (١) : « لعمرى لئن كان مغلبا فى الشعر ، لقد كان غلب فى الخطب » . وكان الأديب اذا غلبه خصومه قيل : مغلب ، واذا غلبهم هو قيل : غلب (٢) .

أما الشاعر الذى لم يرض عنه فهو عبيد الله بن الحر . قال اسحاق (٣) : « قلت ليونس : عبيد الله بن الحـــر يقوى ؟ فقال : الاقواء خير منه » .

وهناك رجل آخر لم يكن شاعرا ، ولكنه كان بليغا ، لفت اليه انظار يونس ، فتعلقت به فى اعجاب خالص ، وجعلته يقــول (٤) : « ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن (عثمان) البتى » .

وأشاد يونس بالنابغة الجعدى ورؤبة والعجاج مرة أخرى ، غير أنه ازاح الستار فى هذه المرة عن الغرض الشعرى الذى يرى كلا منهم قد برز فيه أكثر من غيره . قال ابن ســـلام (٥) : « يونس : كان الجعدى أوصف الناس لفرس . أنشدت قوله رؤبة :

فان صدقوا قالوا : جـــواد مجرب
ضليع ومن خير الجيـــاد ضليعها

قال رؤبة : ما كنت أرى المرهف منهـــا الا أسرع . ولم يكن رؤبة والعجاج صاحبى خيل ، ولكن كانا صاحبى ابل ونعتها » .

وقال المرحوم الأستاذ طه أحمد ابراهيم (٦) : « عرف يونس ان

---

(١) الجاحظ : البيان ١ : ٣٧٤ ، العصا ٢٠١ . السيوطى : المزهر ٢ : ٤٨٨ .
(٢) ابن قتيبة عن يونس : ادب الكاتب ١٧٣ .
(٣) قدامة : نقد الشعر ١٠٩ . الجاحظ : الحيوان ١ : ١٣٤ .
(٤) الميدانى : مجمع الأمثال ٢ : ٢٠٦ . وانظر سعيدا الافغانى : فى اصول النحو ٥٦ (الحواشى) .
(٥) الطبقات ١٠٧ . الجاحظ : رسائله ٢ : ٢٢٠ .
(٦) تاريخ النقد الادبى عند العرب ٦٣ .

امرأ القيس وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر وعبد بنى الحسحاس وذا الرمة كانوا يحسنون وصف المطر » .

وأعتقد ان الأمر اختلط عليه ، فالذى أدلى بهذا الحكم هو ذو الرمة لا يونس ، كما يدل قول ابن سلام (١) : « أخبرنى يونس ابن حبيب قال : قيل لذى الرمة : من أحسن الناس وصفا للمطر ؟ فذكروا قول عبيد :

دان مسف فويق الأرض هيدبه
يكاد يدفعه من قام بالراح

.. وذكروا قول عبد بنى الحسحاس :

تعبت به ظنا وأيقنت أنه
يحط الوعول والصخور الرواسيا

.. فقال : بل قول امرىء القيس أجود حيث يقول :

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر »

ولما كان العصر الذى عاش فيه يونس عصر الموازنة بين الشعراء ، وتفضيل أحدهم على الآخر ، بل تفضيل أحدهم على جميع الشعراء أحيانا ؛ كان من الطبيعى أن يشارك رجل مثله فيما يخوض فيه الناس أو يضطر الى ذلك ، وان كان لا يؤمن بصحة هذا المسلك . فقد رأيناه يحكم بعسر الوصول الى أمثال هذه الأحكام المطلقة فى الأمور التقديرية . وقد أحسن يونس كل الاحسان عندما تهرب من سؤال بتفضيل واحد من الشعراء ، ولجأ الى الفن الذى أحسن فيه كل شاعر . قال ياقوت (٢) : « حدث محمد بن سلام قال : « سألت يونس النحوى عن أشعر الناس ، فقال : لا أومى الى رجل بعينه ، ولكنى أقول : امرؤ القيس اذا ركب ، والنابغة اذا

---

(١) الطبقات ٧٦ .

(٢) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥ .

رهب ، وزهير اذا رغب ، والأعشى اذا طـــرب » . عنى بذلك أن امرأ القيس تفوق على غيره فى وصف الخيل ، والنابغة فى الاعتذار ، وزهيرا فى المدح ، والأعشى فى وصف الخمر . وقد وجد هذا القول قبولا عاما من الأدباء والنقاد منذ صدوره الى يومنا هذا ، وكثر ترديده على كل لسان تعرض لهؤلاء الشعراء . ولكننا لسنا على يقين من صدوره عن يونس . فقد روى (١) أن قائله كثير أو نصيب ، فان كان ذلك حقا كان يونس راويا له لا مبتكرا . ورواه الأصمعى أيضا عن ابن أبى طرفة .

وبالرغم من كل هذا الحـــرص الذى أبداه يونس ، والتوقى فى خوض غمار معركة التفضيل بين الشعراء ، فقد وقع فيها واصطلى بلهيبها ، وخرج برأى غريب ، لم يرافقه أحد فيه ، وأعتقد أن الذى فرضه عليه أهدافه اللغوية . قال ابن رشيق (٢) : « زعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد . وقال : انما هو كلام فأجودهم كلاما أشعرهم ، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول : لو كان فى مكانه غيره لكان أجود . وذكر أنه صنع أرجوزته :

* قد جبر الدين الاله فجبر *

فيها نحو مئتى بيت وهى موقوفة مقيدة . قال : ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها » .

ويبدو أن تلميذه أبا عبيدة حاول أن يزيد هذا الكلام ايضاحا ، ويدعمه بأدلته ، فقال (٣) : « انما كان الشاعر يقول من الرجـــز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، اذا حارب أو شاتم أو فاخر ، حتى كان العجاج أول من أطاله وقصده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ،

---

(١) العمـــدة ١ : ٩٥ .

(٢) العمدة ١ : ٨٩ . أبو الفرج (طبعة الساسى) ١٨ : ١٢٤ . المزهـــر ٢ : ٤٨٤ .

(٣) العمـــدة ١ : ٩٠ .

واستوقف الركاب عليها ، ووصف ما فيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد ؛ فكان في الرجاز كامرىء القيس في الشعراء » .

واذا كان يونس فقد الرفيق في تفضيله المطلق للعجاج على سائر الشعراء والرجاز ، فقد كان أكثر توفيقا في أحكامه التى وازن فيها بين شاعرين أو ثلاثة ، ولقي من يؤيده ويؤنسه في طريقه . روى الكسائي (١) : « حضرت مجلسا والخليل فيه ويونس بن حبيب النحوى ، فتذاكروا الشعر . فتكلم يونس في تقديم زهير وتقريظه حتى أغرق في وصفه . وذكر الخليل النابغة الذبياني » . وكلا الرجلين اعتمد على سابقين له في تفضيل الشاعر الذى فضل (٢) ، وتابعه في رأيه لاحقون .

ولما كان يونس يفضل العجاج على الجميع فقد مد رأيه هذا على ابنه رؤبة أيضا . قال ابو عبيدة (٣) : « قال رؤبة ليونس : أنا أشعر من أبى . قال : بل أبوك أشعر منك . قال : أبى يقول :

يا دار سلمى ، اسلمى ثم اسلمى بسمسم أو عن يمين سمسم »

وكانت الظروف جميعا تجبره أن يخوض مع الخائضين في المعركة بين شعراء بنى أمية الثلاثة . فجعلهم مراتب ثلاثا . كانت المرتبة الأولى للأخطل ، والثانية للفرزدق ، والثالثة لجرير . قال أبو عبيدة (٤) : « جاء رجل الى يونس فقال له : من أشعر الثلاثة ؟ قال : الأخطل . قلنا : من الثلاثة ؟ قال : أى ثلاثة ذكروا فهو أشعرهم . قلنا : عمن تروى هذا ؟ قال : عن عيسى بن عمر وابن أبى اسحاق الحضرمى وأبى عمرو بن العلاء وعنبسة الفيل

---

(١) مجالس العلماء ٢٥٩ .

(٢) ابن سلام ٤٧ ، ٥٢ . ابن رشيق ١ : ٩٨ .

(٣) الموشح ٢١٨ .

(٤) الأغانى ٨ : ٢٨٣ . اليزيدى : الأمالى ٨٠ . الزمخشرى : ربيع الأبرار ٤ : ١٠٤ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥ .

وميمون الأقرن ، الذين ماشـــوا الكلام وطرقوه .. لا كأصحابك هؤلاء لا بدويون ولا نحويون . فقلت للرجل : سَـــله : وبأى شيء فضلوه ؟ قال : بأنه كان أكثرهم عدد طوال جياد ، ليس فيها سقط ولا فحش ، وأشدهم تهذيبا للشعر . فقال أبو وهب الدقاق : أما ان حمادا وجنادا كانا لا يفضلانه ! فقال : وما حماد وجناد ؟ لا نحويان ولا بدويان ، ولا يبصران الكسور ولا يفصحان ، وانا أحدثك عن أبناء تسعين أو أكثر ، أدوا الى أمثالهم ، ماشـــوا الكلام وطرقوه حتى وضعوا أبنيته ، فلم تشذ عنهم زنة كلمة ، وألحقوا السليم بالسليم والمضاعف بالمضاعف والمعتل بالمعتل والأجوف بالأجوف وبنات الياء بالياء وبنات الواو بالواو ، فلم تخف عليهم كلمة عربية . وما علم حماد وجناد ! » .

وعقب ياقوت على هذا القول بأن يونس انفرد به . وذلك غـــير صحيح . فابن سلام يقول (١) : « فاختلف الناس فيهم أشـــد الاختلاف وأكثره . وعامة الاختلاف أو كله فى الثلاثة . ومن خالف فى الراعى قليل ، كأنه آخـــرهم عند العامة » يريد عامة العلماء . وأبو عبيدة يقول أيضا (٢) : « كان يونس بن حبيب وعيسى بن عمر وأبو عمرو يفضلون الأخطل على الثلاثة » . ولا نعجب لهذا كثيرا اذا وضعنا أمامنا عبارة أبى عبيدة التى تبرز نظرتهم الى الأخطل ، قال (٣) : « الأخطل أشبه بالجاهلية ، وأشدهم أسر شعر ، وأقلهم سقطا » . فقد كانوا بشعراء الجاهلية أعلق وألزم .

ولم أعثر على قول ليونس فضل فيه الفرزدق عـــلى جرير . ولكن أبا الفرج حكى ذلك فى قوله (٤) : « كان يونس فرزدقيا » ،

---

(١) الطبقات ٢٥١ .
(٢) الأغانى ٨ : ٣٠٥ .
(٣) الأغانى ٨ : ٢٩٢ .
(٤) الأغانى ٨ : ٥ .

وأبان ابن سلام أبعاد هذا الاعجاب فى قوله (١) : « كان يونس يقدم الفرزدق بغير افراط » .

وأورد الدكتور محمد زغلول سلام خبرا بشـــأن الموازنة بين الشعراء الثلاثة يدل على أن يونس كان يقدم الفرزدق عليهم جميعا . قال (٢) : « كان يونس بن حبيب يفضل الفرزدق . ويعلل ذلك بأنه أكثرهم عـــدد قصائد طوال جياد ، ولم نجد للأخطل عشرا بهذه الصفة ، ووجدنا لجرير ثلاثا بهذه الصفة » . ولكنه لم يذكر مصدر الخبر ، ولم أجده فى موضع آخر . وأخشى أن يكون الأمر اختلط فيه بين الفرزدق والأخطل ، اذ أن ما حكاه عن الفرزدق ينطبق على ما أوردته آنفا عن الأخطل . وأخشى أيضا أن يكون هذا الخبر قد خلط الى جانب ذلك كلام يونس بتعليق أبى عبيدة عليه حين قال (٣) : « فنظرنا فى ذلك ، فوجدنا للأخطل عشرا بهذه الصفة ، والى جانبها عشرا ان لم تكن مثلها فليست دونها ، ووجدنا لجزير بهذه الصفة ثلاثا » .

وما عثرت عليه من نقد تطبيقى عند يونس قليل كل القلة . فقد عاب صـــورة رســـمها امرؤ القيس بأنها غـــير حقيقية . قال ابن ســـلام (٤) : « أنشـــدت يونس النحوى هـــذا البيت الذى لامرىء القيس :

اذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثنـــاء الوشاح المفصل

فزوى وجهه وجمع حاجبيه وقال : أخطأ مع احسانه ، ان الثريا لا تعترض ، انما الاعتراض للجوزاء ، هلا قال كما قال ذو الرمة :

---

(١) الطبقات ٢٥١ .

(٢) تاريخ النقد العربى ٨٩ . وانظر ما يضعف هذا الخبر عند ابن سلام ٣١٥ ، والمرزبانى فى الموشح ١١٦ .

(٣) الأغانى ٨ : ٢٩٢ .

(٤) الطبقات ٧٣ . ابن منظور : نثار الأزهار ١٠٩ .

وردت اعتسافا والثريا كأنها

على قمة الرأس ابن ماء محلق » .

وعاب فى قول ثان لفظا استخدمه الأعشى ، وفضل عليه أبياتا لمروان بن أبى حفصة من نفس روى شعر الأعشى ووزنه . قال المرزبانى (١) : « حدثنا الأصمعى قال : كنا فى حلقة يونس فجاء مروان بن أبى حفصة فقال : أيكم يونس ؟ فأومأنا اليه فجلس . فقال : أصلحك الله ، انى أرى أقواما يقولون الشعر لأن يكشف أحدهم عن سوءته فيمشى فى الطريق أحسن به من أن يظهر مثل ذلك الشعر ، وقد قلت شعرا أعرضه عليك ، فان كان جيدا أظهرته ، وان كان رديئا سترته . وأنشده :

طرقتك زائرة فحى خيالها بيضاء تخلط بالحياء دلالها

فقال له : يا هذا ، اذهب فأظهر هذا الشعر ، فأنت والله فيه أشعر من الأعشى . يريد فى قوله :

رحلت سمية غدوة أجمالها . . .

فقال له مروان : قد سؤتنى وسررتنى ، فأما الذى سررتنى به فلارتضائك الشعر ، وأما الذى سؤتنى به فلتقديمك اياى على الأعشى . قال : نعم ، ان الأعشى قال :

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها

والطحال لا يدخل فى شىء الا أفسده ، وأنت لم تقل ذلك » . وأحب أن أشفع هذا الخبر بشك فيه ، اذ سبق أن ذكرت أن مروان أبى أن يستمع الى القصيدة ، وأمهل الشاعر الى أن يأتى خلف الأحمر ليكون هو الحكم . وهناك مصادر ترى أن خلفا هو صاحب هذا القول .

---

(١) الموشح ٥٥ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٦ .

ونخرج من دراسة النقد عند يونس بصورة عن الرجل ، تبرز بعض الجوانب فيه ، وتغفل بعضها الآخر . فتبرز لنا الصورة هوى الرجل ، وأين يتجه مزاجه .

فهو يحب من الشعر : ما كان من حيث المضمون كثير الأخبار كشعر الفرزدق ، أو مانحا للعظة وحاثا على الخلق الكريم مثل شعر عدى بن زيد العبادى ؛ ومن حيث الشكل وافر الرونق والعذوبة كشعر الأخطل ، محكما متلاحما كشعر ابن قيس الرقيات وابن الزبعرى ، والأخطل أيضا الذى كان يعنى بتهذيب شعره . .

قال ابن سلام (١) : « سمعت يونس وقد تمثل بهذا البيت :

ايها الشامت المعير بالدهـ ـر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيا م ؟ بل أنت جاهل مغرور

فقال : لو تمنيت أن أقول شعرا ما تمنيت الا هذه ، أو مثل هذه » .

واقف أمام ما ذكره الجاحظ أن يونس كان يحب من الشعر غير المصنوع ولا المحبر ، فيأتى بعضه سامى الارتفاع وبعضه الآخر ساقطا ، كما كان تلميذه الأصمعي (٢) يحبه كذلك . فان أكثر ما بين يدى من أقوال يعارض هذا التصريح . فتفضيل الرجل لزهير ابن أبى سلمى ، الذى كان أكبر رأس فى مدرسة عبيد الشعر ، حتى قال عنه (٣) « أهل النظر : كان زهير أحصفهم شعرا ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة فى المدح ، وأكثرهم أمثالا فى شعره » ؛ وتقديمه للأخطل الذى نظره أستاذه أبو عمرو (٤) بالنابغة من الجاهليين ، الذى احتج من

---

(١) الطبقات ١١٨ .
(٢) ابن سلام ١٠٥ . ابن رشيق ١٠٧ .
(٣) ابن سلام ٥٣ .
(٤) ابن سلام ٥٥ .

فضله بأنه (١) : « كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتا ، كان شعره كلام ليس فيه تكلف » ؛ وتأخيره لجرير الذى لم يكن يروى فى شعره (٢) ؛ كل ذلك يدل على أن التوفيق خان الجاحظ فى قوله ، وانه ربما أراد الأصمعى فذكر يونس سهوا .

وتبرز لنا الصورة المنهج الذى كان يؤثره الرجل فى النقد ، فقد كان يعتمد أكثر ما يعتمد على الموازنة . قال ابن دريد (٣) : « قيل ليونس أو خلف : بم تعرف الشعر الجيد ؟ فقال : بالششقلة . قال : الششقلة : أن تزن الدينار بازاء الدينار لتنظر أيهما أثقل ، ولا أحسبه عربيا محضا » .

وكان عند الموازنة يبحث عن آراء السابقين ممن درسوا كلام العرب ، وألفوه ، وعايشوه ، فعرفوا مسالكه ودروبه ، وهم البدو وعلماء العربية . ولم يكن يتقبل أقوالهم على علاتها ، بل رفض بعضها كما فعل مع ابن أبى اسحاق .

وكان يقيم مقارنته بين الشعراء ، وتفضيله أحدهم على نظيره ، على عدة أسس كشف عنها فى حديثه عن العجاج والأخطل . الأساس الأول كثرة ما أصدر من قصائد . وتزداد هذه القصائد قيمة عند طولها ، حتى أشاد بأن أرجوزة العجاج بلغت مئتى بيت . والأساس الثانى الجودة . ولم يسكت الرجل عند ذلك ، بل أبان لنا بعض المظاهر التى نعتمد عليها فى الحكم بالجودة . فكانت عنده تجنب الفحش ، وقد أتاه ذلك من الجانب الخلقى الذى التزمه فى حياته . وكانت تجنب السقط ، وهو ما عبر عنه بطريقة أخرى حين قال : « ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول : لو كان فى مكانه غيره لكان أجود » .

---

(١) ابن سلام ٤٦ . وانظر وصف يونس وابى عبيدة السابق لشعره .

(٢) ابن سلام ٣١٥ .

(٣) الجمهرة ٣ : ٣٤٤ . المزهر ١ : ٢٧٨ .

ونحن عند التأمل فى هذين الأساسين اللذين وضعهما للمفاضلة بين الشعراء نتبين أنهما أهم الأسس التى اتخذها محمد بن سلام بعد ذلك مقياسا لتقسيم الشعراء الى طبقات . فكأن يونس أهدى الى تلميذه أهم عمد كتابه الذى يعد أحسن ما أصدره العرب فى النقد فى عصره . حقا ، اعتمد ابن سلام على كثيرين من العلماء السابقين على يونس ، والمعاصرين له ، واللاحقين ؛ ووسع أسس يونس فكشف فيها عما لم يفطن اليه الرجل ، ولكن ذلك كله لا ينقص من قدر يونس ، وخاصة اذا أضفنا ما أدلى به من أحكام فى انتحال الشعر اتخذها ابن سلام أيضا مع غيرها عمادا لما أقام به الدنيا وأقعدها فى أقواله فى هذا الصدد .

ويبدو أن يونس كان على حظ كبير من قوة الملاحظة ، أعانه على التنبه الى أشياء اعتمد عليها فى نقده . فقد كان القدماء يحكون الخبر التالى فى عجب ، مستدلين به على توارد خواطر الشعراء على الصورة الواحدة . قال بلال بن جرير الشاعر (١) : « وقف الفرزدق على أبى بمربد البصرة ، وهو ينشد قصيدته التى هجا بها الراعى .. فلما بلغ الى قوله :

* بها برص بجانب اسكتيها *

وضع الفرزدق يده على فيه وغطى عنفقته ، فقال أبى :

* كعنفقة الفرزدق حين شابا *

فانصرف الفرزدق وهو يقول : « اللهم اخزه ، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت انه لا يقول غير هذا ، ولكن طمعت الا يأبه فغطيت وجهى ، فما أغنانى ذلك شيئا » . أما يونس فيذهب الى أبعد من ذلك ويقول : « ما أرى جريرا قال هذا المصراع الا حين غطى الفرزدق عنفقته ، فانه نبهه عليه بتغطيته اياها » .

---

(١) الأغانى ٨ : ٣٤ ـ ٥ . والعنفقة : شعرات بين الشفة السفلى والذقن .

كل ذلك يجعلنا لا نعجب حين نرى الناشئين من الشـــعراء يعرضون عليه شعرهم ليتعرفوا على رأيه فيه ، ويقوم منه ما يستحق التقويم ، كما فعل مع مروان ، وكما يبين الخبر التالى . روى محمد ابن سلام عن وهب بن أبى ابراهيم التميمى البرجمى (١) : « جاشت نفسي بشيء من الشعر ، فقلت ليونس : ان رجلا صاحب شعر ، وقد جاشت نفسه بشيء منه ، وهو يكره أن يخرجه حتى تسمعه . قال : هات . فأنشدته فقال : من هذا العاض بظر أمه » .

ولا نعجب أن يلقى يونس الثناء من القدماء والمحدثين . قال ياقوت (٢) فبالغ كما كان يبالغ القدماء : « كان يونس عالما بالشعر ، نافذ البصر فى تمييز جيده من رديئه ، عارفا بطبقات شعراء العرب . . يرجع اليه فى ذلك كله » . وقال الدكتور محمد مندور (٣) مقتصدا كما يفعل المحدثون : « وجد نقاد الشعر الخبيرون كالضبى وخلف ويونس بن حبيب ثم الجمحى » . وقال طه أحمـد ابراهيم (٤) : « فأما أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب فلهما فى نقد الأدب آراء حسنة ، ولهما فيه أثر جليل . يعدان فى النحويين ، ويعدان كذلك فى اللغويين الذين وطدوا النقد الأدبى ، ونظموا بحوثه ، واستنبطوا مقاييسه » .

النظم

قال الفيروز أبادى فى تعريف يونس بن حبيب (٥) : « الأديب الشاعر » .

أما الأديب فهـــو لقب استحق أن يتحلى به بما كان له من مشاركة فى رواية الشعر ، وجهد فى حكاية الأخبار التى استخرجها

---

(١) الموشح ٣٦٧ .
(٢) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥ .
(٣) النقد المنهجى عند العرب ١٧ .
(٤) تاريخ النقد الأدبى ٥٢ .
(٥) تحفة الأبيه ١١٠ .

منه ، وجهود مشرفة فى النقد . بل ربما استحقه بجهوده فى اللغة والنحو ، اذ أطلق بعض المؤرخين على رجال العلمين الأخيرين رجال الأدب ، وعدوا يونس « من الطبقة الخامسة فى الأدب » (١) أرادوا بذلك الجيل الخامس من اللغويين والنحاة . وصنيع ياقوت فى معجم الأدباء أشهر من أن يذكر ، حين أدخل فيه كل صاحب تأليف على اختلاف العلوم والفنون .

وأما الشاعر فلقب انفرد به الفيروز أبادى ، وله مدلول واحد لم يضق فتنحسر عنه جماعة ولا اتسع فتندرج تحته كرة أخرى ، مثل اللقب السابق . ولم يقع فى يدى بيت واحد صرح أحد الكتاب أنه من نظم يونس . بل ان العبارة التى أثبتها سابقا ، وتحكى أعجاب يونس ببيت عدى بن زيد العبادى تبين فى جلاء أنه ليس بشاعر ، قال : « لو تمنيت أن أقول شعرا .. » فهو لم يقل شعرا ولا تمنى أن يقـــوله . ولذلك أعتقد أن هذا القول سهو من الفيروز أبادى لا حقيقة وراءه .

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . ابن العماد ١ : ٣٠١ .

الفصل الثاني

الدراســـــات اللغوية

اللغــة

أعلن من أرخوا ليونس بن حبيب انه أصدر أربعة كتب . اذا نظرنا الى عناوينها جعلنا الرجل من العلماء باللغة والقرآن والأدب . فاذا أدمنا النظر وعمقناه ، واستنبطنا الظـــواهر ، تبين أن الكتب الأربعة تعطينا صورة واحدة ، هى صورة اللغوى . فالرجل كان لغويا فى جهوده جميعا . اتخذ من اللغة وسيلة وغاية . فعنى بكل ما يجعله قادرا على الاحاطة باللغة ، من شعر واخبار ونقد ، عارفا بمسالك العرب فى حديثهم من نحو وصرف .

ولو وصلت الينا هذه الكتب لمنحتنا صـــورة وافية للرجل ، ولكننا مضطرون الى استقصاء الأقوال المتناثرة منه فى الكتب المختلفة للتعرف عليه ، كما فعلنا فى بقية الحقول التى عنى بها . ولحسن الحظ أن ما بقى من هذه الأقوال غير قليل .

وأحب للتيسير أن أعتمد على تصنيف ما لهذه الأقوال . فأبدأ بما أدلى به من أقوال من « اللفظ » . وحينئـــذ أجد أنه عالج فيما عالج صورة هذا اللفظ ومعناه . وكانت جل عنايته موجهة الى هذه الصورة عندما تتعدد بالضبط مع بقاء مدلولها واحدا لا يتغير . روى ابن دريد عنه (١) : « تقول العرب : ان فى مض لمطمعا ، وفى مض ، ومض : يريدون بذلك كسر الرجل شدقه عنـــد سؤال

---

(١) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ . وميم مض بالكسر والفتح والضم ..

الحاجة » . وروى ابن السكيت عنـــه (١) : « أبى قائلها الا تما وتما وتما ـ ثلاث لغات : يعنى تمام الكلام » و « أهل العالية يقولون : السِّم والشهد ، وتميم تقول : السم والشهد » (٢).

وعالج صورة اللفظ عندما يتعدد ضبطها مع تعـــدد مدلولها أيضا . روى عنه ابن السكيت (٣) : « غرفت غرفة واحدة ، وفى الاناء غرفة ، وحسوت حسوة واحدة ، وفى الاناء حسوة » .

وعالج صورة اللفظ عندما تتعدد هيئتها ويتغير تكوين حروفها ، مع بقاء معناها واحدا . روى عنه ابن السكيت (٤) : « ذوى العود يذوى ذويا ، وقد ذأى يذأى ذأوا . وقـــال الأصمعى : ولا يقال ذوى . قال أبو عبيدة : قال يونس : هي لغة » . وروى ابن دريد عنه (٥) : « ذففه بالسيف وذافه وذفه : اذا أجهز عليه ، وذفف عليه . ودففه ودافه ودفه ودفف عليه : اذا أجهز ، أى قتله » .

ويبدو أنه خاف أن يقع تصحيف فى بعض الألفاظ ، فأعلن عن الحروف التى خاف فيها ذلك بالعبارة . روى عنه ابن دريد (٦) : « حفصت الشيء ـ بالصـــاد غير المعجمة : اذا ألقيته من يدى . وحفضته ـ بالضاد معجمة : اذا عطفته » .

ووجه أكبر قسط من عنايته الى الصيغ غـــير الشائعة من الألفاظ . فكان جل الألفاظ التى أوردها فى كتبه ، ونقلتها عنه المصادر الباقية من هذا النوع الذى قد نسميه تيسيرا « الغريب » ، مهما كان أصله أو استعماله . فنجد فى هذه الألفاظ : الأفعال الثلاثية

---

(١) اصلاح المنطق ٩٨ . والتاء بالكسر والضم .
(٢) اصلاح المنطق ١٠٤ . أهل العالية يضمون الحرف الأول وتميم تفتحه .
(٣) اصلاح المنطق ١٢٩ . أدب الكاتب ٢٤٧ ، ٤٣٥ . المزهر ٢ : ٢٩٩ .
(٤) اصلاح المنطق ٢١٣ . ادب الكاتب ٣٦٦ .
(٥) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .
(٦) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .

السالمة ، مثل ما رواه ابن السكيت (١) : « وقد بعل الرجل يبعل : اذا صار بعلا ، حكاها يونس ، وأنشد : * يا رب بعل ساء ما كان بعل * » ، والثلاثية المضاعفة ، مثل ما رواه ابن السراج (٢) : « زعم يونس أنهم يقولون : كع يكع . قال سيبويه : يكع أجود . وهو كما قال » ، والثلاثية المعتلة مثل قول الفراء (٣) : « أنشدنا يونس النحوى :

رب حلم أضاعه عدم المال ، وجهل غطى عليه النعيم

بتخفيف غطى » ، والأفعال المضارعة من الثلاثى مثل التى حكاها عنه الصغانى فى الشوارد : « ينثر ما فى الجراب : مثل ينثر .. يخطر ببالى : لغة فى يخطر . علن الأمر : لغة فى علن وعلن » ، والأفعال المزيدة مثل ما جاء فى الشوارد : « وترت الصلاة ووترتها : مثل أوترتها .. حشمته : أغضبته ، مثل حشمته وأحشمته .. أحلأت السويق : مثل حلأته » .

ونجد منها المصادر مثل ما جاء فى الشوارد : « مصدر الا — أى قصر — ألو وألو .. الأبو : الأبوة .. قدمت البصرة قدمانا : أى قدوما » ، والجموع مثل آخاء التى رواها ابن جنى (٤) ، وما جاء فى الشوارد (٥) : « اللؤمان : اللئام .. يقال فى جمع سقب الناقة : سقبان ، وفى جمع سقب البيت — وهو عموده : سقبان . يجمع الجدى جديانا » ، والأسماء مثل ما رواه ابن دريد (٦) : « قال يونس : القرطبى ، مثل فعللى : الصرع على القفا . وأخبرنا أبو حاتم

---

(١) أصلاح المنطق ٢١٥ . العين مفتوحة .

(٢) الحلل ٦١ ظ . الكاف مفتوحة واستجاد سيبويه كسرها .

(٣) السيرافى : أخبار النحويين البصريين ٢٨ . وانظر ابن ولاد : المقصور والممدود ٨١ .

(٤) الخصائص ١ : ٣٣٨ . سر الصناعة ١ : ١٦٦ .

(٥) وانظر ابن السكيت : اصلاح المنطق ٤١٣ .

(٦) الجمهرة ٣ : ٤٦١ . القاف مكسورة والراء ساكنة والباء مشددة مفتوحة .

عن أبى عبيدة عن يونس : شهد أعرابيان الجمعة ، فلما ركع الناس وجعلوا يتأخرون قال أحدهما لصاحبه : اثبت فانها القرطبى » وما رواه الصغانى : « العلى : العلة » .

ونجد منها الصفات كالتى وردت فى الشوارد : « المصياف : الذى لا يتزوج حتى يشمط .. هذا أمر صفران حقران : أى صغير حقير .. اناء ثلثان : الى الثلث ، كالنصفان : الى النصف » .

وتتعدد الأسباب التى تجعل هذه الألفاظ غريبة ، ولكنها جميعا تؤول الى عدم قياسيتها . فقد كان منها ما خضع لابدال أو اعلال غير قياسى ، مثل قوله (١) : « مضيت على الأمر مضوا ، وهذا الأمر ممضـــو عليه » وقوله فى الشوارد : « الامتطال : الانتطال .. التحليل : الاحليل .. يتم يأتم : مثل ييتم » ؛ ومالم يعل على حين كان واجبا اعلاله مثل قوله فى الشوارد : « أجوبت القدر ـ وهذيل تقول : أجيبتها ـ : أى غلفتها » ؛ وما خضع لقلب غير قياسى مثل قوله فى الشـــوارد : « أمق للعين : مأقها .. امرأة مفاضة : أى مفضاة . وأفاضها : أى أفضاها » ؛ وما خضع لحذف غير قياسى مثل قوله فى الشوارد : « المضرح : المضرحى ، كالقطام للقطامى » . فلان مضلع لهذا الأمر : أى مضطلع ، وكذلك مطلع » .

وكان منها المشتقات غير القياسية ، اذا أخذت من علم مثل قوله فى الشوارد (٢) : « اختاف : أتى خيف منى ، كأخاف وأخيف ، مثل امتنى : اذا أتى منى » ، أو أخذت من اسم مثل قوله فى تهذيب الألفـــاظ (٣) : « تقول العـــرب : امرأة معجزة : يعنون ضخمة العجيزة » ، وقوله فى النـــوادر (٤) : فاكه من الفاكهة ، مثـــل

---

(١) اصلاح المنطق ٣٧٠ . الميم مضمومة والواو مشددة .

(٢) وانظر اصلاح المنطق ٣٤١ ، وتهذيب الألفاظ ٤٨٦ ، وشرح القصائد السبع الطوال ٥٣٥ .

(٣) ٣١٨ . الجيم مشددة مكسورة .

(٤) المزهر ٢ : ٢٧٥ .

لابن وتامر » وقوله فى الجمهرة (١) : « تقول العرب : فلان أضيع من فلان : أى أكثر ضياعا منه . ولم يقله غيره » .

وآن الأوان لأترك صورة الألفاظ ، والتفت الى معناها ، وأتتبع الأمور التى عالجها ونبه عليها فى هذا الجانب . واذ نفعل نرى أنه فطن الى أن بعض الألفاظ استخدمت للدلالة على معان معينة مدة من الزمان ثم أهملت لسبب ما فلم يعد الناس يستخدمونها ، وعد هذا النوع من الألفاظ ميتا . قال ابن دريد (٢) : « الغطر : فعل ممات ، يقال : مر فلان يغطر بيديه : مثل يخطر سواء ، هكذا يقول يونس » . وقال أبو عبيدة (٣) ليونس حين أنشده شعر الأسدى :

ومركضة صريحى أبـــــوها   تهان له الغـــلامة والغـــلام

أفتقول للجارية غلامة ؟ قال : لا ، هـــذا من الكلام المتروك وأســـماؤه زالت مع زوال معانيها كالمرباع والنشـــيطة ، وبقى الصفايا » .

وأورد المعانى غير المعروفة للألفاظ الشائعة فى معان أخرى . قال ابن دريد (٤) : « سرق الشيء : اذا خفى . هكذا يقـــول يونس ، وأنشد :

وتبيت منتبذ القـــذور كأنما   سرقت بيوتك أن تزور المرقدا

كأنما سرقت : أى خفيت » . ولكنه لم يفعل ذلك حبا للغريب لذاته ، بل كان يجعل معنى الشعر هو الحكم ، فان اقتضى المعـــانى الغريبة أوردها ، والا رفضها رفضا باتا ، قال أبو عبيدة (٥) : (قدم

---

(١) ٣ : ٩٥ .
(٢) الجمهرة ٢ : ٣٦٩ .
(٣) الجاحظ : الحيوان ١ : ٣٢٩ .
(٤) الجمهرة ٢ : ٣٣٤ .
(٥) ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

جعفر بن سليمان العباسي من عند المهدى الخليفة . فبعث الى يونس ابن حبيب فقال له : أنا وأمير المؤمنين اختلفنا فى هذا البيت :

والشيب ينهض فى السواد كأنه ليل يصيح بجانبيه نهـــار

فما الليـــل والنهـــار ؟ فقال يونس : الليل الليل الذى تعرف ، والنهار النهار الذى تعرف . فقال : زعم المهـــدى أن الليل فرخ الكروان ، والنهار فرخ الحبارى » . وعقب أبو عبيدة عـــلى الخبر بقوله : « القول فى البيت ما قاله يونس ، والذى قاله المهـــدى معروف فى الغريب من اللغة » .

وعنى بالمترادفات فأورد مجموعة منها كما كان يفعل أصحاب كتب النوادر واللغات والرسائل اللغوية على الموضوعات . قال ابن دريد (١) : « قال يونس : تقول العرب : فطر ناب البعير ، وشـــقأ نابه ، وبقل ، وبزغ ، وصبأ : بمعنى واحـــد » . وروى أبو عبيدة عنه (٢) : « رجل لباب ومصاص وخيار ، ويقال للاثنين والجميع على هذا اللفظ ، لا يثنى ولا يجمع » .

وكان يمحص الألفاظ قبل أن يحكم عليها بالترادف ، فان وجد بينها أدنى خلاف أخرجها من حظيرة الترادف . قال التبريزى(٣) : « قال يونس : الفقير : يكون له بعض ما يقيمه . والمسكين : الذى لا شىء له . قال الراعى :

أما الفقـــير الذى كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد

وقلت لأعـــرابى : أفقير أنت أم مســـكين ؟ فقال : لا والله بل مسكين » .

ووجـــد مجمـــوعة من الألفاظ تتقارب معانيها أو تترابط أو تتواصل ، فأتى بها فى الموضع الواحد ، وكشف ما بينها من تقارب

---

(١) الجمهرة ٣ : ٤٦٠ .

(٢) شرح النقائض ٤٦٨ .

(٣) تهذيب الألفاظ ١٥ . شرح ابن الانبارى على المفضليات ٢٣٥ .

وتباعد حتى تتضح معانيها كل الوضوح . قال السيرافي (١) : « قال يونس : تقول العرب : الآل : من غدوة الى ارتفاع الضحى الأعلى ، ثم هو سراب سائر اليوم .. واذا زالت الشمس فهو فيء ، وغدوة : ظل . وأنشد لأبي ذؤيب :

لعمري لأنت البيت أكرم أهله　　　واقعد في أفيائه بالأصائل

.. وكان كذا وكذا الليلة ، تقول ذاك الى ارتفاع الضحى ، واذا جاوز ذاك قالوا : كان البارحة » . وقال ابن دريد (٢) : « قال يونس : تزوج فلان في شرية نساء : يريد حيا تلد نساؤهم الاناث . وتزوج في عزارة نساء : يريد حيا تلد نساؤهم الذكور » .

ولم يقصر يونس جهوده اللغوية على اللفظ المفرد بل تعداه الى العبارة المركبة ، التى شعر بغرابتها وأنها لا تسير على النحو الشائع في العبارة العربية . وأورد أنواعا عدة من هذه العبارات نجد أكثرها من العبارات ذات المعنى الغريب أو الخاص أو الأدبي . قال السيوطي (٣) : « قال يونس : تقول العرب للرجل اذا لقي شرا : ثبت لبده ، يدعون بذاك عليه ، والمعنى دام ذلك عليه » . وقال سيبويه (٤) : « ذو صباح : بمنزلة ذات مرة ، تقول : سير عليه ذا صباح . أخبرنا بذلك يونس عن العرب » . وقال التبريزي (٥) : « عن يونس : كسر في ذلك اربا : اذا طمع فيه » . وقال ابن السكيت (٦) : « قولهم (لا دريت ولا أتليت) يدعو عليه بأن لا تتلى ابله أي لا يكون لها أولاد ، عن يونس .. قال يونس : يقال : ما ثملت شرابي بشيء من طعام ، ومعناه ما أكلت — قبل أن أشرب — طعاما ، وذلك يسمى الثميلة » .

---

(١) اخبار النحويين البصريين ٢٩ . نزهة الالباء ٣٢ .
(٢) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .
(٣) المزهر ٢ : ٢٦٨ .
(٤) الكتاب ١ : ١١٥ .
(٥) تهذيب الألفاظ ٤٣٨ .
(٦) اصلاح المنطق ٣٥٥ ، ٣٩٤ .

ونجد بينها ما عرفه اللغويون باسم الاتباع ، قال أحمد ابن فارس (١) : « يونس : انه شقيح لقيح » . وقيل فى الشوارد : « هذا الشر والبر : اتباع » .

ونجد بينها ما جاءته الغرابة من تثنية ما حقه الافراد ، قال سيبويه (٢) : « قد يثنون ما يكون بعضا لشىء . زعم يونس أن رؤبة كان يقول : ما أحسن رأسيهما » ؛ أو التذكير والتأنيث غير القياسيين ، قال ابن سلام (٣) : « سمعت يونس — وقيل له : ما يعنى الراعى بقوله :

يبيت الحية النضناض منه مكان الحب يستمع السرارا

قال يونس : الحب : القرط — أو قال : الشنف — والنضناض : الذى يخرج لسانه . قال يونس : يقولون : حية ذكر ، ونعامة ذكر ، وشاة ذكر ، وبطة ذكر ؛ ولم أسمعه منه » . وجاء فى الشوارد عنه : « ليلة مقمر : مثل مقمرة .. يقال : كثرت مال فلان ، يؤنثون المال كما أنثوا القوم . قال الله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين » .

ودخلت الغرابة على بعض العبارات من تعدية الفعل اللازم . جاء فى الشوارد عنه : « مكرته : أى مكرت به .. أوماه : اى أومأ اليه » .

ونخلص من دراسة ما وصل الينا من أقوال يونس بن حبيب بأنه كان يعنى باللفظ والعبارة . فعالج اللفظ من حيث صورته عندما تتعدد سواء بقى معناه واحدا أو تعدد ، والصور غير الشائعة له اذ طرأ عليها تغيير غير قياسى ، وعالجه من حيث معناه المهجور ،

(١) الاتباع والمزاوجة ٣٥ ، ٣٧ ، ٧٤ .
(٢) الكتاب ١ : ٢٤١ .
(٣) الطبقات ٤٣٤ .

أو الباقي : المعروف منه وغير المعروف ، والمترادفات ، والمعاني المتقاربة مع شيء من التباعد . وعالج العبارات المركبة ، وخاصة ذات الصبغة الأدبية العالية ، مع شيء من الغرابة .

وأدى به ذلك الى الانفراد بكثير من الألفاظ ، لم يشاركه أحد في روايتها عن العرب ، كما رأينا ونرى في قول ابن جنى (١) : « لم يأت فيما عينه ولامه من موضع واحد (فعلت) الا حرفان فيما علمت ، وهما لبُبت فانت لبيب ، حكاها يونس . قال لى أبو على : قال أبو اسحاق : سألت عنها ثعلبا فلم يعرفها . وحكى قطرب : شررت ، في الشر . وانما تجنبوا (فعلت) بالضم في المضاعف استثقالا للضمة مع التضعيف . فأما حبذا فأصلها لعمرى حبب الا انها لما لزمت الادغام فلم يظهر تضعيفها احتملت لذلك . وقد قالوا أيضا : دممت فانت تدم دمامة » . وزاد ابن خالويه (٢) الى هذه الأفعال عززت الشاة : اذا قل لبنها .

ونستبين من هذه الأقوال أن منهج يونس كان يعتمد على رصد هذه الظواهر التي تخضع لها الألفاظ والعبارات العربية ، لأنه عدها من الظواهر اللغوية . فما هذه الغرابة التي تتسم بها الا لكونها ليست على اللغة الشائعة ، وانما اللغات القبلية الأخرى . وقد أكثر من الاشارة الى أن ما يتحدث عنه « لغة » دون أن يبين الى اية قبيلة تنتمي . ولكنه فعل ذلك في بعض الأحيان ، فأبان أنه عنى بلغة تميم والحجاز وأهل العالية وهذيل ويربوع (من بطون تميم) واليمامة وسليم .

وأعلن أنه يورد بعض ما يقول عن أستاذيه أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، وعن مصدره الرئيسي رؤبة . وأخذ بعضه الآخر

---

(١) شرح المنصف ١ : ٢٤٠ . وانظر المزهر ٢ : ٩٤ . يريد وزن كرم .

(٢) كتاب ليس ٢٦ .

عن الأعراب . قال أبو عمر (١) : « سمعت يونس سأل أعرابيا .. فقال الأعرابي : كان أبي يقول : اني لأبغض الامعة من الرجال . فقالوا له : ما الامعة ؟ فقال : الذي يقول : من يذهب حتى أذهب معه » .

والحق أن يونس نفسه كان يميل الى ايراد ما يورد من ألفاظ وتفسيرات في شكل اخباري أو حواري ، وكأنما وقعت بينه وبين الأعراب أحداث فعلا ، وفي ظني ان كثيرا منها من تخيله . قال (٢) : « صنع رجل لأعرابي ثريدة ليأكلها ، فقال له : لا تسقعها ولا تشرمها ولا تقعرها . قال له : فمن أين آكل لا أبالك ؟ قال : كل من جوانبها . معنى تسقعها : تقشر أعلاها . وتشرمها : تخرمها . وتقعرها : تأكل من أسفلها » . وقال الأصمعي عن يونس (٣) : « سمعت أعرابيا يذكر مصدقا لهم في كلامه قال : فلمقه بعد ما نمقه : أي محاه بعد ما كتبه » .

فهو يحس أن ذلك يقرب الألفاظ ، ويحبب الطلبة فيها ، وييسر حفظها . بل انه ليروي الطرف التي لا تحتوي على الغريب ولكنها تحبب فيه . قال (٤) : « كان جبلة بن عبد الرحمن يخرج الى طباخه الرقاع يستدعي بها الطعام ، وفيها الألفاظ الغريبة الحوشية ، فلا يدري الطباخ ما فيها حتى يمضي بها الى ابن أبي اسحاق ويحيى بن يعمر وغيرهما يفسرون ما فيها من الألفاظ . فاذا عرف الطباخ ما فيها أتاه بما استدعاه . فقال له يوما : ويحك اني أصوم معك ! فقال له الطباخ : سهل كلامك حتى يسهل طعامك . فيقول : يا ابن اللخناء أفأدع عربيتي لعيك » .

---

(١) شرح المنصف ٣ : ١٨ .
(٢) ذيل الأمالي ١١٩ . مجالس ثعلب ٨ ، ٢٦ . المزهر ١ : ١٥٢ . المخصص ٥ : ١٣ . اللسان ١٠ : ٦٩ ، ١٥ : ٢١٤ .
(٣) الجمهرة ٣ : ١٦٣ . أبو الطيب : الأضداد ٦٤٩ .
(٤) ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

وتبين لنا أن يونس كان يمحص الالفاظ قبل أن يحكم عليها . ولم يكن يأبى أن يعلن توقفه عندما يعجز عن بلوغ رأى يطمئن اليه فى لفظ ما . قال ابن سلام (١) : « سألت يونس عن قول الله جل وعز ﴿ كى لا يكون دولة ﴾ فقال : قال أبو عمرو بن العلاء : الدولة فى المال ، والدولة فى الحرب . قال : وقال عيسى بن عمر : كلتاهما فى الحرب والمال سواء . قال : اما انا فوالله ما أدرى ما بينهما » .

وبلغ من تمحيصه للألفاظ التى يدرسها أن أنكر مجموعة وصلت اليه ممن يجلهم من الأعـــراب ، وأخذ على رؤبة وأبيه اشتقاقات اشتقاها عـلى غير القياس عنده ، حتى ضاق به رؤبة ، وقال له ما ذكرته سابقا . ونقد ألفاظ بعض الشعراء الذين أثنى عليهم . قال أبو الفرج (٢) : « سمعت ابن الأعرابى يقول : سئل يونس عن قول ابن قيس الرقيات :

ما مـــر يوم الا وعنـــدهما   لحم رجـــال أو يالغـــــان

فقال يونس : يجوز يولغان ، ولا يجوز يالغان . فقيل له : فقد قال ذلك ابن قيس الرقيات ، وهو حجازى فصيح . فقال : ليس بفصيح ولا ثقة ، شغل نفسه بالشرب بتكريت » .

لا عجب اذن أن نرى يونس يشغل مرتبة لا تقل عن مرتبة أكابر علماء اللغة ، وأن يناقشهم ، فيأخذ عليهم أشياء ، وتؤخـــذ عليه أشياء . حدث محمد بن سلام عنه انه قال (٣) : « النحويون يغلطون فى ثلاثة أشياء : يقولون فى نكاح أم خارجة : خطب ، فتقول : نكح ، وانما هو نكح ؛ ويقولون : ابنة الخس ، وانما هو الأخس مثـــل الأرز ؛ ويقولون : ليس لحاقن رأى ، وانما هو ذهن » .

---

(١) اصلاح المنطق ١٢٩ . المزهر ٢ : ٢٩٩ . فى المال بضم الدال ، والحرب بفتحها .

(٢) الأغانى ٥ : ٨٨ .

(٣) المبرد : الفاضل ١١٦ . الكامل ٤٠٧ .

وخطأ أستاذه عيسى مرة ، قال محمد بن سلام (١) : « قلت ليونس بن حبيب : ان عيسى بن عمر قال : صحف أبو عمرو بن العلاء فى الحديث : (اتقوا على أولادكم فحمة العشاء) فقال بالفاء وانما هى بالقاف . فقال يونس : عيسى الذى صحف ليس أبا عمرو ، وهى بالفاء كما قال أبو عمرو لا بالقاف كما قال عيسى » .

وخطأ أستاذه أبا عمرو فى مرة أخرى . قال ابن سلام (٢) : « قال لى يونس بن حبيب : كان عيسى بن عمر يتحدث فى مجلس فيه أبو عمرو بن العلاء . فقال عيسى فى حديثه : ضربه فحشت يده ، بالضم . فقال أبو عمرو : ما تقول يا أبا عمرو ؟ فقال عيسى : فحشت يده . قال أبو عمرو : فحشت يده . قال يونس : والتى رده عنها جيدة ، يقال : حشت يده بالضم ، وحشنت بالفتح ، وأحشت » .

وأزال عدة ظنون بالخطأ كانت تدور حول أبى عمرو (٣) .

ولكنه لم يسلم مما يؤخذ عليه . فقد سبق أن رأينا تلميذه سيبويه (٤) يضعف الصيغة التى رواها فى الفعل يكع . كذلك خطأه تلميذ آخر له فى أحد الأفعال أيضا . قال أبو حاتم (٥) : « قال لى أبو زيد الأنصارى : سألنى الحكم بن قنبر عن تعاهدت ضيعتى أو تعهدت ، فقلت : تعهدت ، لا يكون الا ذلك . فقال لى : فاثبت لى على هذا اذا سألك يونس فقل نعم . وكان الحكم بن قنبر سأل يونس فقال : تعاهدت . فلما جئت سأله ، فقال يونس : تعاهدت ، فقلت : لا . وكان عنده ستة من الأعراب الفصحاء فقلت : سل هؤلاء . فبدأ بالأقرب اليه فالأقرب ، فسألهم واحدا واحدا ، فكلهم

---

(١) المزهر ٢ : ٣٦٠ .
(٢) مجالس العلماء ١٥٧ .
(٣) العسكرى ٧٤ . أبو الطيب ١٩ . المزهر ٢ : ٣٦٩ .
(٤) ابن السراج ٦١ ظ .
(٥) السيرافى ٤٢ .

قال : تعهدت . فقال : يا أبا زيد ، رب علم كنت سببه ، أو شيئا نحو هذا » . وعاب عليه أبو زيد أيضا اتساعه في اللغات (١) .

ولكن ذلك لا يجعلنا نغض من مكانة يونس ، التى اعترف بها أهل اللغة أنفسهم . قال بعض الأعراب له (٢) وقد استحسن جوابا له : قضيت لك بالفقه ، أى الفطنة . وروى يونس (٣) : « سألنى جندل ابن عبيد الراعى : ما معنى قول الراعى :

يبيت الحية النضناض منه   مكان الحب يستمع السرارا

ما الحب ؟ فقلت : القرط . فقال : خذوا عن الشيخ فانه عالم » .

بل ساوى بعض العلماء بين يونس وأبى زيد نفسه . قال المبرد (٤) : « كان يونس من باب أبى زيد فى العلم باللغات » . ويكفى للتدليل على دلالة هذا الحكم ومداه أن أورد القول التالى ، الذى كان شائعا فى أوساط البصرة عن لغوييها . كان يقال (٥) : « كان الأصمعى يحفظ ثلث اللغة ، وأبو زيد ثلثى اللغة ، والخليل بن أحمد نصف اللغة ، وعمرو بن كركرة الأعرابى يحفظ اللغة كلها » .

النحو

ان أردنا أن نطلق على يونس بن حبيب لقبا علميا واحدا لا نعدوه ، لم نحتر ، ولم نكثر البحث ، فقد كفانا تلاميذه مؤونة ذلك ، واقتصروا على تلقيبه بالنحوى .

واذ كان الأمر كذلك ، وكان الرجل من المؤلفين ، كنا نتوقع أن

---

(١) الزبيدى : الطبقات ١٨٢ .

(٢) شرح القصائد السبع الطوال ٢٩٥ .

(٣) ابن دريد : الاشتقاق ٣٨ .

(٤) السيرافى ٤١ . النزهة ٨٦ . الفهرست ٥٤ .

(٥) السيوطى : البغية ٢٥٤ .

يخلف لنا كتابا أو أكثر ، يدون فيه معارفه وآراءه النحوية . ولكن ذلك لم يكن ، فان كتبه التي نعرف عناوينها تستهدف اللغة أكثر من النحو . ويبدو أنه شابه معاصره الخليل بن أحمد في الاقتصار على تدريس النحو ومناقشة التلاميذ وعدم التدوين فكانت النتيجة عند الرجلين واحدة : أن آراءهما النحوية لم تصل الينا الا عن طريق تلميذ نابه ، عني بالنحو كل العناية ، وسعى الى ابانة آراء السابقين ، وتدوينها ، ومناقشتها ، أعني سيبويه في الكتاب . فنحن لا نعرف مصدرا لآراء يونس غير الكتاب . وكان القدماء أنفسهم يشكون في كل رأي ينسب الى يونس ، مالم يكن مستقى من الكتاب . فقد روى المبرد في المقتضب رأيا عزاه ليونس ، فبحث عنه علي ابن عيسى الرماني في الكتاب . وعندما لم يعثر عليه ، عقب عليه قائلا (١) : « ما أدرى من أين لأبي العباس هــذه الحكاية عن يونس ؟ ! » .

فالمصدر الرئيسي لما أنقــله في هذا الفصل من آراء يونس ، بل المصدر الوحيد ، كتاب سيبويه ، ثم أرفده بما أجده من مناقشات في غيره من كتب النحو .

ويبدو أن سيبويه أكثر من الأخذ عن يونس ، وكان يرفع من قدره ، فأكثر من النقل عنه في الكتاب ، حتى ناهزت المرات التي ذكر اسمه فيها مئتي مرة (٢) . وطبيعي أن لا تكون هذه المرات ممثلة لجهد يونس النحوي كله ، لأن الطبيعي الا يشير سيبويه الى اسمه الا حين يشذ أو يخالف غيره أو ينفرد أو يأتي بأمر يستحق التنــويه .

ونحن عندما ننظر فيما رواه سيبويه عن يونس بعد استقصائه

---

(١) مازن المبارك : الرماني النحوي ١٤٦ .

(٢) مهدي المخزومي : الخليل بن أحمد ٢١٩ . علي النجدي ناصــف : سيبويه ٩٠ .

نجد فيه ظواهر عدة ، تيسر علينا تصنيفه أصنافا مختلفة . واذ كان المهم فى نظرنا أن نبرز جهد يونس الخاص ، الذى يدل على تفكيره الذى انفرد به عن غيره ، فاننى ألجأ الى ما يساعد على ذلك من تصنيف .

فأجد أول ما أجد مجموعة من الآراء النحوية تحدث بها يونس حقا ، ولكنها ليست من ابتكاره ، وانما من ابتكار أحد شيوخه . فيونس راوية لا مبدع لها ، وان كان اقتصاره على روايتها دون التعقيب عليها يدل على أنه مرتض لها . ولكن دلالتها عليه ثانوية ، ولذلك أكشف عنها ، وأورد أمثلتها ، دون أن أطيل فى مناقشتها واستنطاقها .

واقدم من روى عنه من شيوخه عبد الله بن أبى اسحاق ، الذى تتبع اخباره مع الفرزدق خاصة . وأمثل لما رواه عنه بقوله (١) : « فان سميت المؤنث ب « عمرو » أو « زيد » لم يجز الصرف ؛ هذا قول أبى اسحاق وأبى عمرو ، فيما حدثنا يونس » .

وقال الأستاذ على النجدى ناصف (٢) : « أما جملة ما نقل سيبويه عن ابن أبى اسحاق فكانت أربعا كلها من النحو والاستشهاد له ، وسنده فى الرواية هنا يونس ، كما كان سنده هناك فى الرواية عن أبى عمرو » .

وهذا القول فيه تعميم جائر . فليس صحيحا أن كل ما رواه سيبويه عن ابن أبى اسحاق كان عن طريق يونس . فان سيبويه أورد نقلين عنه مهملين ، دون أن يلتفت أدنى التفات الى من أخذهما عنه (٣) ، وأورد نقلا ثالثا مكتفيا بكلمة مبهمة تبين أنه لم يأخذه عن الرجل مباشرة ، قال (٤) : « ولو قلت : اياك الأسد ، تريد من

---

(١) الكتاب ٢ : ٢٣ .
(٢) سيبويه ٦٦ .
(٣) الكتاب ١ : ٢٥٦ ، ٤٢٦ .
(٤) الكتاب ١ : ١٤١ .

الأسد ، لم يجز كما جاز في (أن) الا أنهم زعموا أن ابن أبى اسحاق اجاز هذا البيت فى شعر :

اياك اياك المـــــــــراء فانه   الى الشر دعـــاء وللشر جالب

كأنه قال : اياك ، ثم أضمر بعـــد اياك فعلا آخر فقال : اتق المـــراء » .

كذلك يوجد فى الكتاب نقول كثيرة تحوى أقوالا لأبى عمـــرو ابن العلاء ، أخذها سيبويه عن يونس ، مثل قوله (١) : « زعم يونس أن أبا عمـــرو كان يقول : دارى من خلف دارك فرسخان ، يشبهه بقولك : دارك منى فرسخان ، لأن (خلف) ها هنا اسم ، وجعـــل (من) فيها بمنزلتها فى الاسم » .

ولكننى لا أستطيع هنا أيضا أن أعمم القول بأن سنده فى الرواية عن أبى عمرو هو يونس وحده ، كما قال الأســـــتاذ على النجدى ناصف ، واعتمد فى ذلك على ما قاله هو فى كتابه (٢) : « وقد نقل سيبويه عن أبى عمـــرو ٤٤ مرة ، يذكر فى أكثرها أن الرواية عن يونس ، ويضمر فى أقلها السند أو يغفله جملة » ، وما قاله أيضا (٣) : « يقولون أن سيبويه أخذ الحروف عنه (يريد عن أبى عمرو) . وفى الكتاب دليل على ذلك » . فان أقواله هذه تجعلنى لا أؤيده فى قوله السابق ولا فى قوله الآتى (٤) : « أما النحو فالراجح أنه لم يأخذه عنه ، فلم أر أحدا ذكره ، وليس فى الكتاب دليل عليه » .

---

(١) الكتاب ١ : ٢٠٨ .

(٢) سيبويه ٩٤ .

(٣) سيبويه ٩٥ .

(٤) سيبويه ٩٥ .

وأتى سيبويه ببعض الأقوال ، التى أعلن أن أبا عمرو والخليل ويونس اتفقوا عليها . جاء فى الكتاب (١) : « اذا لقبت مفردا بمفرد أضفته الى الألقاب ، وهو قول أبى عمرو ويونس والخليل ، وذلك قولك : هذا سعيد كرز ، وهذا قيس قفة قد جاء ، وهذا زيد بطة .. فاذا لقبت المفرد بمضاف ، والمضاف بمفرد ، جرى أحدهما على الآخر كالوصف ، وهو قول أبى عمرو ويونس والخليل ، وذلك قولك : هذا زيد وزن سبعة ، وهذا عبد الله بطة .. » .

ولم يصرح سيبويه : هل أخذ هذه الآراء من فم أبى عمرو أو من أحد تلاميذه . ولكن شهرتها وتداولها بين أكثر من تلميذ من تلاميذ أبى عمرو يجعلنا نرجح معرفة يونس بها ، وبصدورها عن شيخه ، ونرجح أن قوله هذا لا يعدو أن يكون ترديدا لما قال شيخه أمامه ، وموافقة عليه .

وأورد سيبويه مجموعة من أقوال شيخيه : عيسى بن عمر ، وأبى الخطاب الأخفش ، وكشف أن يونس قال له ما يوافقها . جاء فى الكتاب (٢) : « قد يقول بعض العرب : ارم ، فى الوقف ، واغز ، واخش ؛ حدثنا بذلك عيسى بن عمر ويونس . وهذه اللغة أقل اللغتين . جعلوا آخر الكلمة حيث وصلوا الى التكلم بها بمنزلة الأواخر التى تحرك مما لم يحذف منه شىء ، لأن من كلامهم أن يشبهوا الشىء بالشىء وإن لم يكن مثله فى جميع ما هو فيه » . وجاء أيضا (٣) : « ما يجوز فيه الرفع مما ينتصب فى المعرفة ، وذلك قولك : هذا عبد الله منطلق ؛ حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عمن يوثق به من العرب » .

والظاهر من كلام سيبويه أن كلا من الرجلين ذكر له رأيه على

---

(١) الكتاب ٢ : ٤٩ . وانظر ٧ ، ١١ .
(٢) ٢ : ٢٧٨ .
(٣) ١ : ٢٥٨ .

حدة . يؤكد لنا ذلك قول سيبويه فى نقل آخر (١) : « يقوى ذلك أن يونس وعيسى جميعا زعما . . . » ، وقوله (٢) زعم أبو الخطاب أن العرب الموثوق بهم يقولون : أنا هذا ، وهذا أنا . . وحدثنا يونس أيضا تصديقا لقول أبى الخطاب : أن العرب تقول : هذا أنت تقول كذا وكذا ، لم يرد بقوله : هذا أنت ، أن يعرفه نفسه كأنك تريد أن تعلمه أنه ليس غيره ، هذا محال ، ولكنه أراد أن ينبهه كأنه قال : الحاضر عندنا أنت ، والحاضر القائل كذا وكذا أنت » .

واذن فلم يكن يونس هو الذى نقل هذه الأقوال الى سيبويه ، بل سمعها سيبويه من أفواههم فى غالب الظن . ولكن الرجلين كانا شيخين ليونس ، فهل سمع هو أيضا هذه الأقوال منهما . ان كان الأمر كذلك ، كان ما رواه سيبويه عنه مجرد اتفاق مع ما سمعه من شيخه . والا فهو رأى خاص ليونس ، اتفق مع آراء الرجلين . ولا شك أن من العسير أن تؤكد أحد الظنين ، وان كان الظن الأول أقرب الى الاحتمال .

وننتهى بهذا من الأقوال التى أعلن سيبويه أن يونس رواها له عن واحد من شيوخه ، والتى رجحنا أنها كذلك ، والتى يوجد احتمال أنها ليست من ابتداع الرجل . وننتقل الى هذا النوع الأخير من الأقوال ، أو التى تدل ظواهر الأمور انها منه ، اذ اننا لا نملك الدليل القاطع هنا أيضا أن يونس لم يكن مجرد راوية لهذه الأقوال أو بعضها غير أنه أغفل اسم الشيخ الذى يروى عنه . وكثيرا ما فعلوا ذلك . ومهما يكن من أمر ، فنحن مضطرون الى الاعتماد على ما عندنا من أقوال ، مهما كانت الأمور التى تشوبها . وانما ألجأنا الى ذلك يونس نفسه اذ لم يعن باصدار كتاب يحفظ لنا أقواله . ولما كنا قد بدأنا الحديث بما رواه عن شيوخه ، كان واجبا

---

(١) ١ : ١٨٢ .

(٢) ١ : ٣٧٩ .

علينا أن نستمر فيه ، ونبين أن الرجل لم يلغ شخصيته أمامهم ، وتقبل كل ما قالوا دون تمحيص أو مناقشة . بل كل الدلائل تدل أنه كان يمعن الفكر فيما يسمع ، وأن هذا الفكر كان يؤدى به كثيرا الى الموقف المستقل .

وكما بدأنا بما رواه عن عبد الله بن أبى اسحاق آنفا ، نبدأ هنا بما خالفه فيه . ويبدو ان اعجاب يونس بالفرزدق جعله يعارض شيخه فى موقفه منه أو لا يتابعه فيه على الأقل ، وخاصة أن الصلة بين الشيخ والتلميذ لم تدم طويلا فيما يبدو ، أو لم تشتد أواصرها . فتوقف مرة ، موافقا فى ذلك شيخه الآخر الذى كان يحترمه كل الاحترام . قال ابن سلام (١) : « قال يونس : وقال ابن أبى اسحاق فى بيت الفرزدق :

وعض زمـــان يا ابن مروان لم يدع
من المـــــال الا مسحتا أو مجرف

.. قال أبو عمرو بن العلاء : لا أعرف لها وجها . وكان يونس لا يعرف لها وجها . قلت ليونس : لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه . فقال : لا ، كان ينشدها على الرفع ، وأنشدنيها رؤبة ابن العجاج على الرفع » .

وعارض يونس ابن أبى اسحاق فى مرة أخرى ، اذ اهتدى الى وجه من التعليل لم يفطن اليه شيخه ، قال ابن سلام (٢) : « أخبر يونس أن ابن أبى اسحاق قال للفرزدق فى مديحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشـــام تضربنا
بحاصب كنديف القطن منثـــــور

---

(١) الطبقات ١٩ . الموشح ١٠١ .
(٢) الطبقات ١٦ . الموشح ٩٩ .

عـــلى عمائمنا يلقى وأرحلنـــا ـ

على زواحف تزجى ، مخها ريـــــر

قال ابن أبى اسحاق : أسأت ، انما هى (رير) ، وكذلك قياس النحو فى هذا الموضع . وقال يونس : والذى قال جائز حسن .. » ذهب يونس الى وقوع تقديم وتأخير ، والترتيب الطبيعى للعبارة : رير مخها .

وتعطينا هذه المعارضة واحدة من الخصائص التى تفرق بين الرجلين . فقـد وضح أن ابن أبى اسحاق كان يسرع الى تخطئة المتكلم مهما كانت فصاحته ، وكان نقاؤه العربى . أما يونس فيظهر غير ذلك ، بل يبحث أولا عن المنافذ التى تجعله يحكم بالسلامة أولا ، فان عجز عن العثور عليها ، توقف حائرا ، ولم يهرع الى التخطئة .

وفى كتاب سيبويه مواضع تدل على أن يونس عارض أستاذه فى غير شعر الفرزدق ، وفى آراء لم ينفرد بها بل تابعه فيها بعض أئمة النحو . جاء فى الكتاب (١) : « ومن هذا الترحم . والترحم يكون بالمسكين والبائس ونحوه ولا يكون بكل صفة ولا كل اسم ، ولكن ترحم بما ترحم به العرب . وزعم الخليل أنه يقول : مررت به المسكين ، على البدل ، وفيه معنى الترحم . وبدله كبدل : مررت به أخيك .. وكان الخليل يقول : ان شئت رفعته من وجهين ، فقلت : مررت به البائس ، كأنه لما قال : مررت به ، قال : المسكين هو ، كما يقول مبتدئا : المسكين هو ، والبائس أنت . وان شاء قال : مررت به المسكين ... وفيه معنى الترحم كما كان فى قوله : رحمة الله عليه ، معنى رحمه الله . فما يترحم به يجوز فيه هذان الوجهان ، وهو قول الخليل .. وأما يونس فزعم أنه ليس يرفع

---

(١) ١ : ٢٥٥ .

شيئا من الترحم على اضمار شيء يرفع ، ولكنه أن قال : ضربته ، لم يقل أبدا الا المسكين ، يحمله على الفعل ؛ وان قال : ضرباني ، قال : المسكينان ، حمـــله أيضا على الفعل ، وكذلك : مررت به المسكين ، يحمل الرفع على الرفع ، والجر على الجر ، والنصب على النصب ، ويزعم أن الرفع الذى فسرنا خطأ ؛ وهـــو قول الخليل وابن أبى اسحاق » .

وروى سيبويه (١) واحدة من مسائل النعت السببى اختلف فيها يونس مع أستاذه عيسى بن عمر . فقد اتفق الاثنان على التفرقة فيه بين أنواع شتى . فرفعا ما كان غير منون دالا على علاج يرى كالضارب والكاسر . أما الثابت غير الدال على علاج يرى كالآخذ والمخالط فاتفقا على نصبه اذا كان دالا على عمل واقع . ثم اختلفا فى غير الواقع منه فذهب عيسى الى تبعيته لما قبله ، ويونس الى أنه مرفوع . وقد خالفهما سيبويه فذهب الى أن الصفة الدالة على العمل تتبع ما قبلها فى الاعراب ، سواء أكانت منونة مثل (مررت برجل مخالط بدنه داء) أم غير منونة وأراد المتحدث معنى التنوين مثل (مررت برجل مخالطه داء) ، وسواء أكانت الصفة دالة على علاج يرى أم دلت على عمل ثابت ليس فيه علاج ، وسواء أدلت على عمل واقع أم عمل غير واقع . وأورد من الأدلة ما أبطل كل حجة للرجلين .

ولم يقف يونس عند هذا بل خالف أقرب شيوخه الى قلبه ، وأعظمهم فى عينه : أبا عمرو بن العلاء . ولم يخالفه جاهلا برأيه ، بل كان عارفا به وراويا له . جاء فى الكتاب (٢) : « قال يونس : من صرف (هنـــدا) قال :هذه هند بنت زيد ، فنون (هندا) لأن ذا موضع لا يتغير فيه الساكن ولم تدركه علة ، وهكذا سمعنا من

---

(١) ١ : ٢٢٨ .

(٢) ٢ : ١٤٨ .

العرب . وكان أبو عمرو يقول : هذه هند بنت عبد الله ، فيمن صرف . ويقول : لما كثر فى كلامهم حذفوه كما حذفوا (لا أدر) و (لم يك) و (لم أبل) و (خذ) و (كل) وأشــــباه ذلك ، وهو كثير » . ولم يتدخل سيبويه فى القولين ، مقتصرا على حكايتهما . ولعل السبب جواز الرأيين عنده ، اذ روى كل من الرجلين عن العرب ، فذكر أحدهما القاعدة العامة ، وذكر الآخر ما يفعلونه على غير قياس للتخفيف .

وخالف يونس (١) أستاذه فى النسب الى الأسماء المعتلة الآخر بالياء أو الواو مع سكون ما قبلهما . فقد روى هو نفسه أن أبا عمرو كان يقول فى النسب الى ظبية : ظبيى . وخالفه وكان يقول فى : ظبية : ظبوى ، وفى دمية : دموى ، وفى فتية : فتوى .

وقد فصل سيبويه المسألة فكشف عن جميع أركانها . فذكر أن هذه الأسماء اذا كانت خالية من تاء التأنيث اتفق جميع النحاة فى النسب اليها ، فقالوا فى ظبى : ظبيى ، وفى غزو : غزوى . وعلل سيبويه ذلك بأن حرف العلة فى هذه الألفاظ جرى مجرى الألفاظ الصحيحة ولم يعل . وعلله الرضى الاستراباذى (٢) بحصول الخفة بسكون العين وصحتها وعدم ما يجرىء على التغيير .

فاذا اتصلت تاء التأنيث بها اختلف النحاة . اذ لم يفرق أبو عمرو بين الخالى من التاء والمتصل بها ، وجعل النسب الى ظبية : ظبيى ، والى غزوة : غزوى ، أيضا . وكان تعليق سيبويه على هذا الرأى أنه القياس ، ولا ينبغى أن يكون القياس الا هذا . وعلله بأننا عددنا الكلمة مثل الكلمات غير المعتلة ، وهذه الكلمات لا يؤثر فيها وجود تاء التأنيث أو خلوها منها ، فكذلك ما ماثلها من كلمات معتلة .

---

(١) الكتاب ٢ : ٧٤ . الخصائص ٢ : ١٠٦ .

(٢) شرح الشافية ٢ : ٤٨ .

أما يونس فخالف بين الكلمة عند دخول التاء عليها ، وقال اننا اذا نسبنا الى ظبية قلنا : ظبوى ، والى فتية قلنا : فتوى ، والى دمية قلنا : دموى ، من اليائى ؛ واذا نسبنا من الواوى الى غزوة قلنا : غزوى ، والى عـــروة : عروى ؛ فلا فرق عنده بين الواوى واليـــائى .

وكان المعقب على الرأيين فى هذه المرة الخليل بن أحمد ، فأعلن أن الأول أقيسهما وأعربهما . ولكنه لم يرفض رأى يونس جمـــلة وتفصيلا ، بل قبله فى الكلمات اليائية . وعللها بأنهم شبهوا فعلة بفعلة ، وفعلة بفعلة ، وفعلة بفعلة (١) ، لأنك لو بنيت فعلة من بنات الواو لصارت ياء ، فلو أسكنت العين على ذلك المعنى لثبتت ياء ولم ترجع الى الواو ، فلما رأوها متشابهة الأواخر جعلوا النسب اليها واحدا . واعتمد فيه أيضا على السماع من العرب اذ أنهم نسبوا الى بنى البطية فقالوا بطوى .

وقصر الرضى الاستراباذى هذا التغيير على الثلاثى لأن مبناه على الخفة ، فطلبت بقدر الامكان ، وعلى ما فيه التاء من الكلمات ، لأن حذفهم التاء عند النسب جرأهم على تحريك الساكن ، مع قصـــد التفرقة بين المذكر والمؤنث . فأجروا التغيير على الكلمات اليائية لتخف بقلب الياء واوا ثم حملوا الكلمات الواوية عليها طردا للباب .

ورفض الخليل رأى يونس فى الكلمات الواوية ، وقال : لا أقول فى غزوة الا : غزوى ، وفى غدوة الا غدوى . وعلل رأيه بأن فعلة وفعلة من الواوى لا تشبه فعلة وفعلة ؛ وأن فعلة من الواوى اذا كانت واحدة فعل تكون بالياء ، ولو لم تكن على فعل للزم الحرف الذى قبلها التحريك ولم تشبه غدوة ، وان أسكنت ما قبل الواو فى فعلة من الواوى الذى ليس واحده فعل فحذفت الهاء لم تغـير الواو لأن ما قبلها ساكن . واعتمد أيضا على السماع فذكر أن العرب

---

(١) الأولياء بفتح الفاء ، والثانيتان بضمها ، والثالثتان بكسرها ، والعين الأولى فى كل مجموعة ساكنة وفى الثانية متحركة .

حين نسبوا الى بنى جروة قالوا : جروى . ووافقه سيبويه فى رأيه هـــذا .

وزاد الاستراباذى علة أخرى تفرق بين اليائى والواوى من هذه الكلمات ، قال : « ذوات الياء بتحريك عينها تنقلب ياؤها واوا ، فتخف شيئا ، وان كان يحصل بالحركة أدنى ثقل ، لكن ما يحصل بها من الخفة أكثر مما يحصل من الثقل . وأما ذوات الواو فيحصل بتحريك عينها ثقل من دون خفة » .

واختلف يونس (١) مع أستاذيه عيسى وأبى عمرو فى تصغير معتل العين واللام ، وأدلى برأى فضله سيبويه على ما جاء به الرجلان . ذهب عيسى الى أن تصغير أحـــوى هو : أحى ، مصروفا . ولكن سيبويه خطأ هذا القول ، وقال : « لو جاز ذا لصرفت (أصم) لأنه أخف من أحمر ، وصرفت أرأس اذا سميت به ولم تهمز فقلت : أرس » . وذهب أبو عمرو الى أن تصـــغيره هو : أحى . فخطأه سيبويه أيضا وقال : « لو جاز ذا لقلت فى عطاء : عطى ، لأنها ياء كهذه اليـــاء وهى بعد ياء مكسورة ، ولقلت فى سقاية : سقيية ، وشاو : شوى » . أما يونس فذهب الى أن تصغيره هو : أحى . فارتضى ســـيبويه هذا الرأى وعقب عليه قائلا : « هو القيـــاس والصواب » ، وعلل ذلك بقوله : « لأن هذه اللام (يريد لام الكلمة) اذا كانت بعد كسرة اعتلت واستثقلت فى .. غير المعتل . فلما كانت كسرة فى ياء قبلها ياء التحقير ازدادوا لها استثقالا فحذفوها .. ولا تصرفه لأن الزيادة ثابتة فى أوله ولا يلتفت الى قلته كما لا يلتفت الى قلة يضع » .

نتبين مما سبق أن يونس بن حبيب عنى بما كان لشيوخه من آراء لغوية ونحوية ، فاحتفظ بها ورواها لتلاميذه . وتسود هذه المرويات الظواهر التى سادت مروياته فى الحقول الأخرى . فقد كان أكثر اقبالا على أبى عمرو ، ورواية عنه ، واتفاقا معه . ففاق ما رواه

---

(١) الكتاب ٢ : ١٣٢ .

عنه كل ما روى عن بقية شيوخه مجتمعين ، بل بلغ أضعافه .
وبالرغم من اعجابه بعبد الله بن أبى اسحاق ، وقف منه موقف الند ، وعارضه فى كثير مما قاله ، معارضة هامة ، اذ تعتمد على نظرة كل من الرجلين الى التراث العربى . ووقف من عيسى موقفا متوسطا ، فلم يقلل من الرواية عنه ويكثر من الاعتراض عليه كما فعل مع ابن أبى اسحاق ، ولم يحتف به احتفاءه بأبى عمرو . أما روايته عن أبى الخطاب الأخفش فمن القلة بحيث لا تيسر لنا سبيلا الى تصور العلاقة بينهما .

وحان الوقت الآن لنضـــع يونس بين معاصريه ، أو ان تحرينا الدقة : لنضعه الى جوار تربه الخليل بن أحمد ، ليلقى كل منهما الضوء على الآخر ، ويكشف من جوانب شخصيته ما لا تكشفه دراسة الفرد على ضوء من شيوخه .

وأتبع النهج نفسه الذى اتبعته فى هذا الفصل كله . فأستهل الحديث بالآراء التى اتفق فيها الرجلان . وقد تبين لنا أنهما اتفقا فى بعض الآراء التى أخـــذاها منفردين أو مجتمعين عن شيخهما أبى عمرو . ولكن يتجلى من كتاب سيبويه أنهما اتفقا أيضا فى كثير من الآراء ، التى لا يوجد دليل أو اشارة على أنهما تلقياها عن شيخ لهما . مثال ذلك قول سيبويه (١) : « سألت الخليل ويونس عن نصب قول الصلتان العبدى :

أيا شاعرا لا شـــاعر اليوم مثـــله

جرير ، ولكن فى كليب تواضـــع

فزعما أنه غير منادى ، وانما انتصب على اضمار ، كأنه قال : يا قائل الشعر شاعرا . وفيه معنى حسبك به ، كأنه حيث نادى قال : حسبك به ، ولكنه أضمره كما أضمروا فى قوله : تالله رجلا ، وما أشبهه » . وفى بعض الأحيان وقع الاتفـــاق بين الرجلين فى

---

(١) الكتاب ١ : ٣٢٨ ، وانظر ٣٧٢ .

النتيجة التى وصلا اليها . ولكننا لا نعرف العلل التى أدت بيونس الى نتيجته ، على حين كشف سيبويه عن علل الخليل . قال (١) : « هذا باب ما لا يجوز أن يندب ، وذلك قولك : وارجلاه ، ويا رجلاه . وزعم الخليل ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال . وقال الخليل : انما قبح لأنك أبهمت ، الا ترى أنك لو قلت : واهذاه ، كان قبيحا لأنك اذا ندبت فانما ينبغى لك أن تفجع بأعرف الأسماء ، وأن تختص فلا تبهم لأن الندبة على البيان .. » .

وفى بعض الأحيان أعلن اتفاق الرجلين ، وأتى بالعلة مغفلة فلم يبين هل هى من عنده أو من عند أحد الرجلين أو من عندهما معا ، ولعل الفرض الأخير أرجحها ، قال (٢) : « هذا باب ما يكرر فيه الاسم فى حال الاضافة ، ويكون الأول بمنزلة الآخر ، وذلك قولك : يا زيد زيد عمرو ، ويا زيد زيد أخينا ، ويا زيد زيدنا . زعم الخليل ويونس أن هذا كله سواء ، وهى لغة للعرب جيدة . وقال جرير :

يا تيم تيم عدى لا أبا لكم لا يلقينكم فى سوأة عمر

.. وذلك لأنهم قد علموا أنهم لو لم يكرروا الاسم صار الأول نصبا ، فلما كرروا الاسم توكيدا تركوا الأول على الذى كان يكون عليه لو لم يكرروا » .

والتزم سيبويه فى أكثر الأحيان الأقوال التى اتفق عليها الرجلان ، وعدها القياس لما تتعلق به من قواعد ، اذ أن الكلام العربى الفصيح يندرج تحتها ، والعلماء الثقات لا يختلفون معها . قال (٣) : « أما ما جاء مثل تولب ونهشل فهو عندنا من نفس الحرف مصروف ، حتى يجىء أمر يبينه ، وكذلك فعلت به العرب ، لأن حال التاء

(١) الكتاب ١ : ٣٢٤ . وانظر ١ : ٤٦١ ، ٢ : ١٥٥ .
(٢) الكتاب ١ : ٣١٤ ، وانظر ٣٧٥ .
(٣) الكتاب ٢ : ٣ . وانظر ١ : ٤٧٤ ، ٢ : ١٣ ، ٤٢ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، ١٣٣ ، ٢٨٣ ، ٤١٠ .

والنون في الزيادة ليس كحال الألف والياء لأنهما لم تكثرا فى الكلام زائدتين ككثرتهما ، فان لم تقل ذلك دخل عليك أن لا تصرف نهشلا ونهسرا . فهذا قول الخليل ويونس والعـــــرب » . وقال (١) : « .. وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء » .

وكان ينافح عن رأيهما ويدحض ما خالفه من آراء ، كما فعل فى الضمائر الواقعة بعد لولا ، قال (٢) : « اذا أضمرت الاسم فيه جر ، واذا أظهرت رفع . ولو جاءت علامة الاضمار على القياس لقلت ، لولا انت ، كما قال سبحانه (لولا أنتم لكنا مؤمنين) ولكنهم جعلوه مضمرا مجرورا . والدليل على ذلك أن الياء والكاف لا تكونان علامة مضمر مرفوع . قال الشاعر :

وكم موطن لولاى طحت كما هـــوى
بأجرامه من قلة النيق منهـــــــــوى

وهـــذا قول الخليل ويونس . وأما قولهم : عساك ، فالكاف منصوبة . قال الراجز :

* يا أبتا علك أو عساكا *

والدليل على أنها منصوبة أنك اذا عنيت نفسك كانت علامتك (نى) قال عمران بن حطان :

ولى نفس أقول لهـــا اذا ما تنازعنى : لعلى أو عســــانى

فلو كانت الكاف مجرورة لقال : عساى . ولكنهم جعلوها بمنزلة (لعل) فى هذا الموضع . فهذان الحرفان لهما فى الاضمار هذه الحال ، كما كان للدن حـــال مع غدوة ليست مع غيرها ، وكما أن لات أن لم تعملها فى الأحيان لم تعمل فيما سواها فهى معها بمنزلة ليس ،

---

(١) الكتاب ٢ : ٤٢ .
(٢) الكتاب ١ : ٣٨٨ . وانظر المسألة ٩٧ فى كتاب الانصاف لابن الانبـــارى ص ٦٨٧ . وفى الرمانى لمازن المبارك ٢٨٧ .

فاذا جاوزتها فليس لها عمل .. وزعم ناس أن اليـــاء فى لولاى وعسانى فى موضع رفع ، جعلوا لولاى موافقة للجر و (نى) موافقة للنصب كما اتفق الجر والنصب فى الهاء والكاف . وهذا وجه ردىء لما ذكرت لك ، ولأنك لا ينبغى لك أن تكسر الباب وهو مطرد تجد له وجها ، وقد يوجه الشىء على الشىء البعيد اذا لم يوجد غيره ، وربما وقع ذلك فى كلامهم » .

فلا عجب اذن أن يفترف سيبويه من هــذه المسائل التى اتفقا فيها . وقد اعترف بذلك فى أبواب من التصغير ، فقال (١) : « وجميع ما ذكرنا قول يونس والخليل » . وقال فى أبواب من النداء (٢) : « اعلم أن كل شىء ابتدأناه فى هذين البابين أولا هو القياس ، وجميع ما وصفنا من هذه اللغات سمعناه من الخليل ويونس عن العرب » .

وكان طبيعيا أن يختلف الرجلان فى بعض المسائل ، وكل منهما على ما هو عليه من تفكير واجتهاد واستقلال بالرأى . وقد أورد سيبويه جملة من هذه المسائل التى اختلفا فيها . واقتصر فى قليل منها على دور الراوية ، فلم يرجح واحدا منها على الآخر ، اذ صح لديه القولان . قال (٣) : « سألت الخليل عن قوله :

الا رجلا جزاه الله خـــــيرا يدل عــــلى محصـــلة تبيت

فزعم أنه ليس على التمنى ، ولكنه بمنزلة قول الرجل : فهلا خيرا من ذلك ، كأنه قال : ألا ترونني رجلا جــزاه الله خيرا . وأما يونس فزعم أنه نون مضطرا . وزعم أن قوله : (لا نسب اليوم ولا خلة) على الاضطرار .. والذى قال مذهب » .

ولكن سيبويه مال فى أكثر المواضع التى اختلفا فيها الى رأى الخليل ، وفضله على رأى يونس . قال مثلا (٤) : « اذا حقرت رجلا

---

(١) ٢ : ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٢) ١ : ٣١٨ .
(٣) ١ : ٣٥٩ .
(٤) ٢ : ١١٧ . وانظر ١٣٧ .

اسمه (قبائل) قلت : إقبيئل ، وان شئت قلت : قبيئيل ، عوضا مما حذفت . والألف أولى بالطرح من الهمزة لأنها كلمة حية لم تجيء للمد ، وانما هي بمنزلة جيم مساجد وهمزة برائل ، وهي في ذلك الموضع والمثال ؛ والألف بمنزلة ألف عذافر ؛ وهذا قول الخليل . وأما يونس فيقول : قبيل ، يحذف الهمزة اذ كانت زائدة كما حذفوا ياء قراســـية وياء عفارية . وقول الخليل أحسن كما أن عفيرية أحسن » .

وحكم على رأي يونس في بعض الأحيان أنه مذهب ، ولكن السماع عن العرب يخالفه . قال (١) : « سألته عن قوله : من دون ، ومن فوق ، ومن تحت .. فقال : أجروا هذا مجرى الأسماء المتمكنة لأنها تضاف وتستعمل غير ظرف . ومن العرب من يقول : من فوق ، ومن تحت ، يشبهه بقبل وبعد .. وكذلك من أمام ، ومن قدام ، ومن وراء .. وزعم أنهن نكرات كقول أبي النجم :

* يأتي لها من أيمن وأشمل *

وزعم أنهن نكرات اذا لم يضفن الى معرفة كما يكون أيمن وأشمل نكرة . وســـألنا العرب فوجدناهم يوافقونه .. وأما يونس فكان يقول : من قدام ، ويجعلها معرفة . وزعم أنه منعه من الصرف أنها مؤنثة .. وهذا مذهب ، الا أنه ليس يقوله أحد من العرب » .

وبالرغم من ذلك توجد بعض المواضع التي فضل فيها سيبويه قول يونس على قول الخليل . وعلل ذلك بأن رأي الخليل خالف المألوف من كلام العـــرب ، قال في تصـــغير سفرجل وفرزدق ونحوهما (٢) : « فتحقير العرب هذه الأسماء سفيرج وفريزد .. وان شئت ألحقت في كل اسم منها ياء قبل آخر حروفه عوضـــا . وانما حملهم على هذا أنهم لا يحقرون ما جاوز ثلاثة أحرف الا على

(١) ٢ : ٤٦ — ٧ .
(٢) ٢ : ١٠٦ .

زنته وحاله لو كسروه للجمع ، الا أن نظير حرف اللين الثالث الذى فى الجمع الياء فى التصغير ، وأول التصغير مضموم ، وأول الجمع مفتوح .. فالتصغير والجمع بمنزلة واحدة فى هـذه الأسماء .. وانما منعهم أن يقولوا : سـفيرجل ، أنهم لو كسروه لم يقولوا : سفارجل .. وهذا قول يونس . وقال الخليل : لو كنت محقرا هذه الأسماء لا أحذف منها شيئا — كما قال بعض النحويين — لقلت : سفيرجل — كما ترى — حتى يصير بزنة دنينير . فهذا أقرب وان لم يكن من كلام العرب » . وقد انتشر رأى يونس هذا ، وكانت له الغلبة فى كتب النحو بعد أن ارتضاه سيبويه .

وحكم أحيـانا على رأى الخليل بالبعـد (١) ، ورأى يونس القـوة . قال مثلا (٢) : « سألت الخليل عن القاضى فى النداء ، فقال : أختار : يا قاضى ، لأنه ليس بمنون كما أختار هذا القاضى . وأما يونس فقال : يا قاض . وقول يونس أقوى ، لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا فى غير النداء كانوا فى النداء أجدر لأن النـداء موضع حذف : يحذفون التنوين ، ويقولون : يا حار ، وصاح ، ويا غلام .. » ويبدو أن سيبويه غفل عن أن حذف الياء من (قاضى) كان بسبب التنوين ، فلما يحذف التنوين لا يوجد سبب للحذف .

وتدلنا هذه الأمثلة القليلة من الفيض الغزير فى كتاب سيبويه أن يونس بن حبيب كان شخصية مستقلة ، تأخذ من شيوخها ، فتتفق معهم بقدر وبعد تمعن ، وتختلف معهم حين ترى رأيا غير ما قالوا . فلا تبالى باتفاق ولا اختلاف ، واذ كان شيوخ يونس أئمة المدرسة البصرية ، كان كل اختلاف بينه وبينهم مبعدا بينه وبين هذه المدرسة ، وخاصة اذا اتفق معاصره الخليل مع الشيوخ . ولكن العامل الأول الذى باعد بينه وبين المدرسة البصرية هو اختلافه مع

---

(١) ١ : ٤٢٩ .

(٢) ٢ : ٢٨٩ .

الخليل . فقد وجد الخليل تلميذا مخلصا معجبا ، دون آراءه ، وفسرها ، وعللها ، ونافح عنها ، فى كتاب . ولم يجد يونس غير ذلك التلميذ يفعل معه الأمر نفسه . ولكن نظرة التلميذ للرجلين لم تكن واحــــدة .

وبالرغم من ذلك لم يعدم يونس من يتقبل بعض هذه الآراء التى خالف فيها شيوخه ومعاصريه . فقد جلس بين يديه جماعة من اهل الكوفة ، وجدوا فيه ــ بعد وفاة الخليل ــ أعظم النحـــاة ، واغترفوا من علمه ، وتقبلوا بعض آرائه ودافعوا عنها . واضرب مثالا لذلك بآرائه فى اعمال حرف الجر المحذوف (١) ، والندبة (٢) ، ونون التوكيد الخفيفة (٣) . ولكننى يجب أن أعترف انهم خالفوه فى بعض أقواله . فقد أجاز التمييز بغير ، تقول : « لى عشرون غيره » ومنع ذلك الفراء (٤) . واشترط البصريون لاعمال (ما) عمل ليس الا ينتقض النفى بها نحو ما زيد الا قائم . أما يونس فاغفل هـذا الشرط وأجاز أن تقول : ما زيد الا قائما . ولم يوافقه الكوفيون كل الموافقة ، ولا خالفوه كل المخالفة ، بل فصلوا الأمر . فذهبوا الى أنه اذا كان ما بعد الا منزلا منزلة ما قبلها أعملت نحو ما زيد الا زهيرا ، أما اذا كان هو الأول نفسه فمنعوا اعمالها مثل ما زيد الا أخوك . وأجاز الفراء الاعمال أيضا اذا كان ما بعد الا وصفا نحو ما زيد الا قائما (٥) .

ووجد يونس من النحاة بعد عصره الموقف نفسه ، رفضوا منه بعض ما قال ، وقبلوا بعضه . علق أبو حيان (٦) على البيت :

---

(١) الانصاف ٢٩٣ . الأشمونى ٣٠١ .

(٢) الانصاف ٣٦٤ . الفراء ١٣٤ . الأشمونى ٤٦٥ .

(٣) الانصاف ٦٥٠ . الفراء ١٣٣ . الخصائص ١ : ٨٨ ، ٩٢ . الأشمونى ٥٠٣ .

(٤) ابو حيان : منهج السالك ٢٢٠ .

(٥) أبو حيان ٦٢ .

(٦) ٢٩٥ .

أفيقوا بنى حرب وأهواؤنا معا   وأرحامنا موصـــولة لم تقضب

فقال : واختلف النحويون فى هذه الفتحة التى فى (معا) . فذهب سيبويه والخليل الى أنها فتحة اعراب كفتحتها حالة الاضافة والكلمة ثنائية اللفظ حالة الافراد وحالة الاضافة .. وذهب يونس والأخفش الى أنها كفتحة تاء فتى ، وأنه حين أفردت رد اليهـــا المحذوف وهو لام الكلمة فصار مقصورا . وقال المصنف : هـــو الصحيح . يعنى مذهب يونس والأخفش .. والصحيح ما ذهب اليه سيبويه والخليل .. » .

وارتضى أبو حيان مذهب يونس فى العطف على المجرور دون اعادة جاره (١) ، وعدم العطف بلكن (٢) ، وبعض المسائل الأخرى (٣) .

ونخلص من دراســـة ما بقى من أقوال نحوية أدلى بها يونس ابن حبيب أن كثيرا منها نطق به ردا على أسئلة وجهت اليه ، فى قضية نحوية آونة ، وفى بيت من الشعر أخرى ، وفى آية من القرآن ثالثة . وكان يونس فى بعض الأحيـــان هو الذى يطرح القضية أو ينشد الشعر لاستطلاع رأى تلاميذه ، ثم يأتى بما عنده .

وعندما نستقصى هذه الأقوال ، ونصنفها ، نكاد لا نجد بابا من أبواب النحو ليس للرجل أقوال فيه . وبالرغم من ذلك يلفت النظر منا الأبواب الصرفية . فقد كان له فيها جولات أكثر وأبرز من جولاته فى أبواب النحو . ونضع على رأس الأبواب الصرفية التصغير ، والنسب ، والجموع ، ثم صيغ الفعل .

ولذلك اعتمد عليه سيبويه فى بعضها اعتمادا تاما . وأعلن فى

---

(١) البحر المحيط ٢ : ١٤٧ ـ ٨ .
(٢) البحر المحيط ١ : ٣٢٧ . ارتشاف الضرب ٢٧٣ .
(٣) منهج السالك ١٨٦ .

أحد أبواب التصغير (١) : « وجميع ما ذكرت لك فى هـــذا الباب وما اذكر لك فى الباب الذى يليه قول يونس » . فاذا وضعنا الي جانب هذين البابين أبواب النسب التى اعتمد فيها عـــلى يونس والخليل تبين لنا قدر ما أخذه سيبويه من شيخه .

ويلفت النظر فى النحو أبواب النداء التى اعتمد عليه سيبويه فيها وعلى الخليل اعتمادا كبيرا ، وأبواب الممنوع من الصرف ، والاستثناء ، والضمائر ، والنعت .

ولم يكن كل ما تفوه به من أقوال من ابتكاره ، بل كثيرا ما روى عن شيوخه ، وأكثر الرواية عن أبى عمرو منهم . ولم يلغ شخصيته أمام أقوالهم ، بل الواضح أن كل ما رواه عنهم ولم يعقب عليه كان موافقا عليه . أما مالم يوافق عليه فلم يقتصر على روايته بل كشف عن رأيه فيه ، حتى لو خالف فيه أكثر من واحـد من أساتيذه ، بل لو خالفهم وخالف معهم بعض معاصريه .

وأدى به ذلك الى الانفراد بمجموعة من الآراء التى لم يتابعه فيها جمهور البصريين ، أو لم يجد رفيقا فيها غير بعض من جـاء بعـده منهم كأبى الحسن الأخفش ، أو وجد رفاقا له فيها خارج بلدته ، ساروا معه فى بعضها الشوط كله ، وفى بعضها الآخر بعض الشوط . ثم منحته الأجيال التالية واحدا أو أكثر ممن رضوا عن هذا الرأى أو ذاك من آرائه .

وكان طبيعيا من معاصريه ، وخاصة من البصريين ، أن يصفوه بسبب ذلك بأنه « له قياس فى النحو ومذاهب ينفرد بها » (٢) .

ونحن عند ما نحاول أن نتبين منهج يونس فى دراساته النحوية نجد أنه خاض فى الأبواب النحوية : المسموعة عن العرب والفرضية

---

(١) ٢ : ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . السيرافى ٢٧ . البغية ٢ : ٣٦٥ . ياقوت ٢٠ : ٦٤ . القفطى ٢ : ٣٦٥ .

التي كان النحاة يتخذون منها تدريبا عقليا لتطبيق ما يرون من قواعد نحوية . قال سيبويه عن ذا ، وذي ، وتا ، وألا ، وألاء (١) : « فاذا صار اسما عمل فيه ما عمل بـ (لا) لأنك قد حولته الى تلك الحال كما حولت (لا) . وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء . الا أنك لا تجرى (ذا) اسم مؤنث لأنه مذكر ، الا في قول عيسى فانه كان يصرف امرأة سميتها بعمرو . وأما (ذي) فبمنزلة (في) ، و (تا) بمنزلة (لا) .. وأما (ألاء) فتصرفه اسم رجل وترفعه وتجره وتنصبه وتغيره كما غيرت (هيهات) لو سميت رجلا به .. » .

ونتبين في أقوال يونس احكاما في القيـــاس الذي يستنبطه ، واستبانة لأبعاده . قال سيبويه (٢) : « سألت يونس عن قوله : متى تقول انه منطلق . فقال : إذا لم ترد الحكاية وجعلت (تقول) مثل (تظن) قلت : متى تقول أنك ذاهب . وان أردت الحكاية قلت : متى تقول انك ذاهب ، كما أنه يجوز لك أن تحكى فتقول : متى تقول : زيد منطلق ، وتقول : قال عمرو : انه منطلق . فان جعلت الهاء عمرا أو غيره فلا تعمل . قال : كما لا تعمل اذا قلت : قال عمرو : هو منطلق . فقال : لم تعمل ها هنا شيئا ، وان كانت الهاء هي القائل . كما لا تعمل شيئا اذا قلت : قال ، واظهرت هو ، فقال لا تغير الكلام عن حاله قبل أن تكون فيه (قال) فيما ذكرناه .. » .

وكان عندما يضع قياسا ما يطرده ويعممه ، نرى ذلك في عـــدة مواضع . فنحن نقول : أعطيتكم ذلك ، ونسكن الميم ، فاذا اتصل بها ضمير آخر حركناها وقلنا : أعطيتكمه وأعطيتكمها . ولكن يونس طرد القـــاعدة العامة ، وطبقها على الحالة الثانية وقال : أعطيتكمه ، وأعطيتكمها . والأول أكثر وأعرف ، كما يقول سيبويه (٣) .

---

(١) ٢ : ٤٢ .
(٢) ١ : ٤٧١ .
(٣) ١ : ٣٨٩ .

وطرد قاعدة عدم التقاء الساكنين حتى فى الحالات التى أباح العرف فيها ذلك . قال سيبويه (١) : « تقول : هذا زيد بنى عمرو ، فى قول أبى عمرو ويونس ، لأنه لا يلتقى ساكنان . وليس بالكثير فى الكلام ككثرة (ابن) فى هذا الموضع » .

وطرد فى الممنوع من الصرف القاعدة التى تندرج تحتها الكلمات الصحيحة على الكلمات المعتلة ، حتى خطأه الخليل . قال سيبويه (٢) : « أما يونس فكان ينظر الى كل شىء من هذا اذا كان معرفة : كيف حال نظيره من غير المعتل معرفة ، فاذا كان لا ينصرف لم يصرف ، يقول : هذه جوارى قد جاء ، ومررت بجوارى قبل . وقال الخليل : هذا خطأ ، لو كان من شأنهم أن يقولوا هذا فى موضع الجر لكانوا خلقاء أن يلزموه الرفع والجر اذ صار عندهم بمنزلة غير المعتل فى موضع الجر .. » .

وقد أدى به هذا الطرد للقياس الى مخالفة المسموع من العرب فى عدة مواضع ، وكان من الأسباب التى أفردته بين النحاة . علق الرمانى على القياس الأخير ليونس فقال (٣) : « قياسه على المعتل أولى به ، وهو جوار فى الجمع ، لأن الباب كله على ياء فى آخر الاسم قبلها كسرة فيما لا ينصرف . وذلك يقتضى الحذف والعوض .. فلا وجه لمعصيته مع صحة اجرائه على منهاج واحد » .

وبالرغم من ذلك اتفق يونس مع الخليل فى كثيرمن الأحكام النحوية ، والعلل ، بل فى بعض المبادىء العامة التى كان الرجلان يترسمانها فى اقواعدهما . قال سيبويه فى باب التصغير (٤) : « العوض قول يونس والخليل » يريد التعويض عن الحروف المحذوفة للتصغير بحرف علة ..

---

(١) ٢ : ١٤٩ .

(٢) ٢ : ٥٨ . وانظر ٧٣ .

(٣) الرمانى ٢١٥ .

(٤) ٢ : ١١٠ .

وكان المتوقع من رجل كيونس يميل الى طرد ما يضع من قواعد ومقاييس أن ينفى ما يخرج عنها ويخطئه . ولكنه لم يكن يفعل ذلك ، وكان يفزع الى الضرورة الشعرية ، فيرى أن الوزن هو الذى أجبر الشاعر على المخالفة .

فالدكتور أحمد أمين على حق حين يقول (١) : « فهم يقولون : ان ابن أبى اسحاق الحضرمى وتلميذه عيسى بن عمر كانا أشد ميلا للقياس ، وكانا لا يأبهان بالشواذ ، وكانا لا يتحرجان من تخطئة العرب . وكان أبو عمرو وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أيضا على عكسهما : يعظمان قول العرب ، ويتحرجان من تخطئتهم » .

ويؤدى بنا هـــذا الى تصديق قول القدماء حين يقولون (٢) : « كان النحو أغلب عليه » ، والى أن من وصفه فقال (٣) : « بارع فى النحـــو » قد منحه بعض حقـــه ، ومن ناظر بينه وبين أبى زيد الانصارى (٤) فقال : « كان يونس أعلم من أبى زيد بالنحو » قد قصر به .

فأقرب الأقوال الى ايفاء الرجل حقـــه ما قاله ياقوت (٥) : « امـــام نحاة البصرة فى عصره ، ومرجع الأدباء والنحـــويين فى المشكلات » . فقد كان فى الشطر الأول من حياته ثانى اثنين فى البصرة ، لا يذكر نحوى معهما ، ولا يؤخـــذ النحو عن غيرهما : يتفقان ، ويختلفان ، فتصحب الحجـــة الخليل أكثر مما تصحب يونس . ولكنها لا تتخلى كل التخلى عن الأخير ، ولا تتركه يتردى فى

---

(١) ضحى الاسلام ٢ : ٢٩٦ . وانظر الســيرافى ٢٢ . والزبيـــدى ٢٨ . والأزهرى ٤٠ .

(٢) أبو الطيب ٢١ . الزبيدى ٤٨ . سمط اللآلى ١٩٥ . المزهر ٢ : ٣٩٩ . القفطى ٢ : ٣٦٣ .

(٣) السيرافى ٢٧ . البغية ٢ : ٣٦٥ . القفطى ٢ : ٣٦٥ .

(٤) السيرافى ٤١ .

(٥) معجم الادباء ٢٠ : ٦٤ .

الحضيض . فما أخذ عليه كان ثمرة معرفته الواســعة باللغات والنوادر : الفصيح منها والضعيف ، وثمرة قياس على شيء لم يفطن الى أنه لا يتمتع بكل صفات ما يقاس عليه ، وثمرة تعميم فى مواضع لا يليق بها الا التخصيص . ولكن الرجل بقى علما مشرقا فى بلدته ، وازداد سطوعا بعد وفاة زميله ، ثم انتقــل علمه الى الكوفة فكان واحدا من الينابيع الثرة التى اغترف منها أهلها . وبقيت أقواله أو أكثرها بين يدى العلماء يعودون اليها ، ويعيدون النظر فيها ، فيتفقون مع معاصريه آنا ، ويخالفونهم أخرى ، ويرون فيها الحق المغبــون .

محتويات الكتاب

صدر من سلسلة أعلام العرب

	اسم الكتاب	المؤلف
١	محمد عبده	عباس العقاد
٢	المعتمد بن عباد	على أدهم
٣	جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤	عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد وافى
٥	ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦	معاوية	ابراهيم الابيارى
٧	سيد درويش	د . محمود أحمد الحفنى
٨	عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩	عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠	عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١	مالك	أمين الخولى
١٢	القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣	الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤	الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥	ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦	المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧	الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨	الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩	زكريا أحمد	صبرى ابو المجد
٢٠	قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١	شكيب ارسلان	أحمد الشرباصى
٢٢	ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣	أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

اسم الكتاب	المؤلف
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ أحمد زكى	انور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى	عقيد : محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى	عبد القادر أحمد
٣٣ ـ رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ أبو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ احمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين	د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ـ أحمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل الكاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	احمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى	د . محمود رزق سليم

اسم الكتاب	المؤلف
٥٢ ــ رفاعة الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ــ زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ــ الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ــ ابن حزم الأندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ــ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ــ السيد أحمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ــ المأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ ــ المقرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ــ جمال الدين الأفغانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ــ الجاحظ	د . أحمد كمال زكى
٦٣ ــ ابن ماجد	د . أنور عبد العليم
٦٤ ــ محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ ــ محمود سامى البارودى	د . على محمد الحديدى
٦٦ ــ ابن زيدون	على عبد العظيم
٦٧ ــ عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ ــ موسى بن نصير	د . ابراهيم احمد العدوى
٦٩ ــ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٠ ــ عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ ــ على مبارك	د . حسين فوزى النجار
٧٢ ــ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٣ ــ العزيز بالله الفاطمى	د . على حسنى الخربوطلى
٧٤ ــ أبو بكر الطرطوشى	د . جمال الدين الشيال
٧٥ ــ يونس بن حبيب	د . حسين نصار